المحكم والمتشابه

الدكتورعبد الرسول الغفاري
عضـو الهيئة العلميّة بجامعة كاشان واستاذ مادة علوم القرآن
في قسم الدراسات العليا في سوريا ولبنان





مكتب التّخطيط
وتقنية التّعليم



المُحْكمُ والمُتشابَه

الدكتور عبد الرسول الغفاري
أُستاذ مادة علوم القرآن في قسم الدراسات العليا
وعضو الهيئة العلمية بجامعة كاشان



سرشناسه:	غفاري، عبدالرسول Ghaffari, Abdul-Rasool
عنوان و نام پديدآور:	المحكم والمتشابه/ عبدالرسول الغفاري.
مشخصات نشر:	قم: مركز المصطفى ﷺ العالمي للترجمة و النشر، ١٤٣١ق/ ١٣٨٩ش.
مشخصات ظاهرى:	٢٠٠ص.
شابك:	978-964-195-226-8
وضعيت فهرست نويسى:	فيپا
يادداشت:	عربى.
موضوع:	قرآن -- متشابهات و محكمات
شناسه افزوده:	جامعة المصطفى ﷺ العالمية. مركز المصطفى ﷺ العالمي للترجمة و النشر
ردەبندى كنگره:	١٣٨٩ ٣م٧غ/٨٥/١ BP
ردەبندى ديويى:	٢٧٩/١٥٥
شماره كتابشناسى ملى:	٢١١٤٢١٠

المُحْكَمُ والمُتشابَه

المؤلّف: الدكتور عبد الرسول الغفاري

الطّبعة الأولى: ١٤٣١ق / ١٣٨٩ش

النّاشر: مركز المصطفى ﷺ العالمي للترجمة و النشر

الإخراج الفنّي: السيد مهدي عمادي المجد

معتمد الطباعة: نعمت‌الله يزداني

المطبعة: زلال كوثر ● **السّعر:** ٢٧٠٠٠ ريال ● **عدد النّسخ:** ٢٠٠٠

التوزيع:

● قم، استدارة الشهداء، شارع الحجتية، معرض مركز المصطفى ﷺ العالمي للترجمة والنشر.
هاتف ـ فكس: ٠٢٥١٧٧٣٠٥١٧

● قم، شارع محمد الامين، تقاطع سالارية، معرض مركز المصطفى ﷺ العالمي للترجمة والنشر.
هاتف: ٠٢٥١٢١٣٣١٠٦ ـ فكس: ٠٢٥١٢١٣٣١٤٦

www.eshop.miup.ir , www.miup.ir
E-mail: admin@miup.ir, root@miup.ir

كلمة الناشر

إن التطور العلمي الذي يشهده عالمنا اليوم، والوسائل التكنولوجية الحديثة قد دفعت بعجلة المدنية والثقافة الى الأمام، بل واصبح الانسان يرقب في كل يوم تصورا آخر، وهذا التطور قد كشف لنا القناع عن بعض المناهج الدراسية في معاهدنا ومؤسساتنا العلمية واذا بها مناهج تحتل زواية ضيقة من هذا العالم العلمي الفسيح.

من هنا اتخذت المؤسسات العلميّة في الجمهورية الاسلامية في ايران وفي مقدّمتها جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالميّة؛ أتخذت على عاتقها صياغة بعض المناهج الدراسيّة صياغة تلائم الحركة العلميّة المعاصرة، ومالها من متطلّبات بحيث تنسجم مع المحيط العلمي الجديد.

لقد بادرت الاقسام العلميّة في جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله بمخاطبة الاساتذة ذوي الأختصاص ليساهموا في وضع مناهج حديثة في علوم القرآن، والفقه، والاصول، والتفسير، والتاريخ، و... كي تلبّي احتياجات الدارسين في مختلف المستويات وعلى صعيد كل الاختصاصات الأنسانية والدينية.

كانت خطوة الجامعة جريئة وموفقة حيث بذرت بذوراً صالحة تفتّقت من خلالها براعم طيبة، وانتجت ثماراً ناضجة تؤتى أُكُلها في كلّ حين.

نعم، لمّا كانت بعض المواد الدراسيّة لم تتوفر فيها الكتب المنهجيّة اللازمة التي تنسجم مع السطح العلمي لعموم المعاهد والمؤسسات العلميّة، فقد أناطت ادارة جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله ـ

الحقل العلمي ـ مهمّة تدوين وتأليف هذه المناهج الجديدة والبحوث العلميّة ذات الطابع العلمي والأكاديمي الى جملة من الاساتذة المختصّين والعلماء الأفاضل، وأولتهم رعاية فائقة وتسهيلات محمودة كي يتمّ انجاز تلك البحوث على وفق المناهج المقرّرة. وفعلا تصدّى للعمل نخبة من العلماء، وأُنجز الكثير من تلك البحوث والمؤلّفات، حيث بذل أصحاب الفضيلة جهوداً مضنية، ومساعي متواصلة، بغية المساهمة الجادة في خلق كادرٍ متخصّصٍ في شتى العلوم والفنون، ثم جاءت هذه المساهمة صادقة في كل ابعادها، تجلّلها النظرة الشمولية والعمق العلمي والبيان الواضح.

إن جامعةالمصطفى صلى الله عليه وآله العالميّة اصبحت اليوم محطّ انظار الدارسين في الداخل والخارج، وهي تعدّ بحقٍ من اكبر المؤسسات العلمية في عالمنا الاسلامي والعربي، وقد استقطبت العديد من اصحاب الاختصاص من الاساتذة والمؤلفين، كما أغنت المكتبة الاسلامية بمجموعة بحوث ومؤلفات قد تم طبعها ونشرها خلال هذه السنين القلائل لتكون منهلاً عذباً للدارسين وطلاب الحقيقة والمعرفة.

ومن منطلق الخدمة العلميّة يتقدّم القسم التعليمي في هذه الجامعة بالشكر والتقدير لسماحة الاستاذ الفاضل الدكتور عبدالرسول الغفاري لما بذله من جهود تستحق الاحترام والتقدير ـ في تأليفه لكتاب (المحكم والمتشابه) كما نشكر اعضاء الكادر الفني الذي ساهم بشكل حثيث في انجاز وطبع هذا الكتاب الماثل بين يدي القاريءالكريم.

وكلّنا أمل ورجاء بأن نكون قد ساهمنا في رفد الحقل العلمي والمكتبة الاسلامية بالبحوث والمؤلفات خدمة للعلم والعلماء ومشاركة منّا في تفعيل الحركة الثقافية في العالم الاسلامي، وما التوفيق إلا من عند الله

الهيئة العلمية

في مركز المصطفى صلى الله عليه وآله العالمي للترجمة والنشر

الفهرس

المُقَدِّمَةُ

الحمد لله حمداً كثيراً دائماً أبداً، لا انقطاع له، وأثني عليك كما أنت، سبحانك لا إله إلاّ أنت، الخالق المبدع، المصوّر، العالم، البارئ، الواحد، القاهر، الأول، الآخر، يا مَنْ علمه سابق، ويا مَنْ وعده صادق، ويا مَنْ لطفه ظاهر، ويا مَنْ أمره غالب، ويا مَنْ كتابه محكم ويا مَنْ قضاؤه كائن، ويا مَنْ قرآنه مجيد، ويا مَنْ ملكه قديم، ويا مَنْ فضله عميم، ويا مَنْ عرشه عظيم، أسألك يا ذا الجلال والإكرام أن تصلي على أشرف خلقك وسيد رسلك وخاتم أنبيائك؛ حبيبك محمدﷺ كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم، اللّهم وصلِّ على آله الأطائب الأكرمين، خالصة عبادك، وحججك على خلقك، وخلفائك الذين انتجبتهم لدينك، الأمناء على سرّك، وعِدل قرآنك، والثقل الناطق..

وبعد...، إنّ موضوع المُحكم والمُتشابه يُعدّ من بحوث علوم القرآن، وقد كتب فيه الأوائل مصنّفات عديدة، منها مختصرة، وأخرى فيها من التفصيل والبيان ما هو جليّ للعيان.

على أنّ هذا البحث كان محل نزاع بين مذاهب المسلمين من أشاعرة ومعتزلة، إذ كلّ فرقة ذهبت في تأويل الآيات المتشابهة بما ينسجم مع عقائدها وتصوّراتها الخاصة، فمن المعتزلة نجد طائفة من علمائها تناولت موضوع المحكم والمتشابه وألّفت فيه، نذكر منهم على سبيل المثال:

حمزة بن حبيب الزيّات (ت١٥٦هـ)، ونافع بن عبد الرحمن، وهما من القرّاء السبعة

(ت١٦٩هـ)، ومحمد بن المستنير الشهير بـ (قطرب) (ت ٢٠٦هـ)، وبشر بن المعتمر؛ أبو سهل الهلالي (ت٢١٠هـ)، وخلف بن هشام الأزدي (ت ٢٢٩هـ)؛ الراوي لأحدى القراءات السبعة ومحمود بن حسن الورّاق (ت ٢٣٠هـ)، ومحمد بن الهذيل العلاّف من كبّار شيوخ المعتزلة (ت٢٣٥هـ)، ومحمد بن عبد الوهاب المعروف بـ (أبي علي الجبائي) من شيوخ المعتزلة في البصرة (ت٣٠٣هـ)، وأحمد بن محمد بن حفص الخلال البصري المتوفى في نهاية القرن الرابع الهجري، وأحمد بن جعفر؛ أبو بكر القطيعي (ت ٣٦٨هـ) والقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني (ت٤١٥هـ)، هؤلاء وغيرهم ـ من أعلام المعتزلة ـ كانت مؤلّفاتهم صريحة في الردّ على شيوخ الأشاعرة الذين تناولوا الآيات المتشابهة وفسّروها تفسيراً سطحياً كسائر آيات القرآن اعتماداً على ظواهرها دون أن يسلكوا الطريق الأمثل للوصول إلى المعنى المراد.

وبرز هذا ا لصراع بشكل جليّ فيما بين الأشاعرة والمعتزلة في الجانب العقائدي وبالذات في بحث الصفات حتى اطلق على بعضهم بالصفاتيه.

و الصفاتية هم الذين يثبتون لله سبحانه صفات كصفات المخلوقين، أيّ أنّهم يأخذون بظاهر الألفاظ، سواء تلك التي وردت في القرآن الكريم أم التي وردت في الأخبار، ولا يفرّقون بين صفات الذات وصفات الفعل. فهم يثبتون له سبحانه العلم والقدرة والحياة والإرادة والسمع والبصر والكلام والجود والإنعام والجلال والإكرام، و قالوا: إنّ صفات الذات ثابتة قديمة لا يجوز إخلاء الذات عنها كالعلم والحياة والقدر، أمّا صفات الفعل فعندهم يجوز إخلاء الذات عنها فيما لم تتعلق إرادته تعالى بالإيجاد كالخلق والرزق والإحياء والإماتة.

فهم لا يفرّقون بين القسمين، بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً، كما كانوا يثبتون اليد والرجل والوجه والعين والنزول والصعود والرؤية والجلوس والتكلّم والضحك و.. ويسمّونها صفات خبرية، أيّ أنّها صفات وردت في الشريعة، وجاء بها الخبر الصحيح على حدّ زعمهم.

من هؤلاء: مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، ومحمد بن إدريس الشافعي، وهم أصحاب مذاهب فقهية، وسفيان الثوري، وداود بن علي الاصفهاني، وشريك بن عبد الله، وابن أبي

ليلى، وقد سمّوا فيما بعد بالحشوية لأنهم كانوا يحشون كتبهم بالأخبار دون تمحيص ولا مبالاة فيما ينقلون، إلى أن إنتهى الأمر إلى عبدالله بن سعيد الكلابي وأبي العباس القلانسي والحارث بن أسد المحاسبي وهم كانوا من السلف لكن بدأوا بتحرير عقائدهم باستخدام البحث والجدل، واستفادوا بذلك من علم الكلام، إلى أن جاء أبو الحسن الأشعري إذْ خاصم أستاذه أبا علي الجبائي فانتصر الأشعري إلى الصفاتية من السلف وانتقلت هذه السّمة ـ الصفاتية ـ إلى الأشعري وأصحابه ومؤيّديه فسمّوا بالأشعرية.

فالسلف والأشاعرة هم صفاتية في عقائدهم، وكذلك يسمّون بالحشوية، ويطلق عليهم أصحاب الحديث أو أهل السنة والجماعة.

هؤلاء أجمعوا على الجبر والتشبيه، وقالوا بالأعضاء لله ـ تعالى عمّا يصفون ـ وقِدم القرآن، وينكرون الخوض في علم الكلام والجدل، ويعملون بظاهر الآيات.

و قد عدّ الحاكم النيسابوري البيهقي المعتزلي (ت ٤٩٤هـ) في مقدمة كتابه المنية والأمل ابرز شخصياتهم فقال:

«ومنهم أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وداود بن محمد الاصفهاني، والكرابيسي؛ الحسين بن علي».

وذكرهم الشهرستاني في الملل والنحل، وعدّ منهم: مضر وكهمس وأحمد الجهيمي وداود الجواربي.

من أشهر كتبهم في التجسيم والخرافات: كتاب التوحيد والصفات لمحمد بن إسحاق بن خزيمة (ت ٣١١هـ)، والردّ على الجهمية لأبي سعيد عثمان بن سعيد الدارمي (ت ٢٨٠هـ)، وربما نسب الكتاب المذكور لابن حنبل، وكتاب الإبانة وكتاب مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري.

ومن كتب الصفاتية ـ الأشاعرة ـ المشهورة: (تأويلات أهل السنّة) لأبي منصور الماتريدي (ت٣٣٣هـ)، وهو كتاب في ثلاث مجلدات ، منه نسخة مخطوطة في دار الكتب المصرية، تحت رقم (٢٧٣٠٦ب)، وكتاب (الرد على الجهمية) المتقدّم، طبع ضمن مجموعة

باسم (شذرات البلاتين من طيبات كلمات سلفنا الصالحين)، وهو ينسب إلى إبن حنبل كما أشرنا إليه، تكلّم فيه المصنّف عن الصفات، والرؤية، والعرش، والكلام.

ومن كتب الصفاتية (الإكليل في المتشابه والتأويل) لابن تيميّة و(تفسير سورة الخلاص) له كذلك، و(إلجام العوام عن علم الكلام) للغزالي.

ثم هناك بعض المصنّفات التي تناولت متشابهات القرآن منها لابن اللّبان، وكتاب (أساس التقديس) للرازي.

وهكذا بقية مؤلّفات الأشاعرة، وفي مقدمتها كتب إبن تيميّة.

إنّ أغلب أهل السنّة أشاعرة، وفي ذلك قال الصفدي:

«إنّ الغالب في الحنفيّة معتزلة، والغالب في الشافعيّة أشاعرة، والغالب في المالكية قدرية، والغالب في الحنابلة حشوية».

غير أنّ فريد وجدي قد غلط عندما عدّ الحشوية فرقة من المعتزلة، ذلك ما قاله في مادة (حشو) في دائرة معارفه.

وللوقوف على آراء الطرفين من أشاعرة ومعتزلة هناك دراسات عديدة قد يهتدي إليها الباحث والمختص، ولسنا نحن بصدد تلك العقائد لكن كإشارة عابرة إنّ المعتزلة قالت بخلق القرآن بينما قالت الأشاعرة بقدَمه.

أقول: إنّ أوّل من قال بخلق القرآن من المعتزلة (الجعد بن درهم)، وهو أوّل من نُكّل به من قبل وإلى واسط في العراق خالد بن عبد الله القسري، إذ ذبحه في يوم الأضحى سنة (١١٨هـ) بعد ما أتمّ خطبته.

وهكذا نكّل بالمعتزلة القادر بالله العباسي، والسلطان محمود الغزنوي، الذي صلب المخالفين وأمر بلعن المعتزلة.

والجعد بن درهم هو الذي جعل في قارورة تراباً وماء وقيل وضع فيها لحماً، فاستحال دوداً، وقال أنا خلقت هذا فبلغ ذلك الإمام الصادق عليه السلام فقال له كم هو؟ وكم الذكران..؟

وعليه إنّ المعتزلة ـ بما أنّهم أصحاب كلام وفلسفة ـ فقد كانت كتبهم كذلك عليها طابع

كلامي إذ بحثوا عن المتشابه من زاوية عقائدية، وأودعوا في تفاسيرهم الردّ على الخصوم من أهل الأهواء والنِحل، والرد على المجبّرة والمشبّهة والمجسّمة من الأشاعرة ومن غيرهم، وهذا بطبيعته ينحى منحاً كلامياً صرفاً. ثم لا يخفى أنّ كتب الاعتزال إنّما برزت في تأويل المتشابه بعدما احتدم الخلاف المذهبي بين الناس، سواء كان هذا الاحتدام في بغداد أو البصرة أو بلاد الري.

وقد ساهم علماؤنا الإماميّة في رفد المكتبة الإسلامية، سالكين منهجاً سويّاً وهو يفصح عن خط أهل بيت العصمة ومعدن الحكمة، فمن أبرز الكتب الصادرة والتي وصلتنا هو كتاب (المحكم والمتشابه) للنعماني ضمن تفسيره، وربما هو أقدم ما وصلنا، وكتاب (حقائق التأويل في متشابه التنزيل) للسيد الشريف الرضي (ت٤٠٦هـ)، وكتاب (متشابه القرآن ومختلفه) لابن شهر آشوب المازندراني (ت٥٨٨هـ)، و(متشابهات القرآن) لصدر المتألهين، ملاّ صدرا محمد بن إبراهيم الشيرازي (ت ١٠٥٠هـ)، على أنّ الكثير من كتب الأوائل من علمائنا قد فُقدَت، فلم نعثر عليها إلاّ ما هو مرقوم في صفحات الفهارس القديمة، كفهرست إبن النديم، والشيخ الطوسي، ورجال النجاشي، وغيرها من مصادر الرجال والتراجم.

وقد سلكنا في كتابنا هذا (اُلمحكم والمُتشابه) منهجاً مختصراً يناسب المنهج المقرّر الذي عُدّ على عُجالة ليكون بحثاً يدرّس في مرحلة ا لماجستير في جامعة المصطفى العالمية، فرع دمشق، سائلين المولى أن ينفع به أبناءنا ا لأعزاء إنّه سميع مجيب.

المؤلف
عبد الرسول الغفاري

تمهيد

لقد جاء القرآن الكريم بمفاهيم جديدة على الساحة الدينية في الجزيرة العربية، لذا أنّ بعض ألفاظ القرآن لم تكن مألوفة عند كافة الناس، أو قل لم تكن واضحة حيث لم يكن للعرب علم يهتدوا به في كشف مضامين تلك الآيات مثل (خلق عيسى عليه السلام)، (خلق آدم عليه السلام) كلاهما خلقا من تراب، وموضوع (الخليفة في الأرض)، أنّه رمز، أوتعبير رمزي عن شأن الإنسان، فلم تستطع العرب إدراك هذه المنزلة للإنسان، بعدما كانت العرب تغزو وتقتل وتنهب وتسلب.

ولمّا كان بعض تعابير القرآن فوق مستوى العامة مما حصل فيها التشابه كقوله ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1] والمراد (إلى رحمة الله ناضرة) بينما الآية ﴿وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ﴾[2] أيّ أهل القرية، هومن مجاز الحذف، ونظير ذلك ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ..﴾[3] فهِمَ الجهلةُ أن له ساق تعالى عمّا يصفون، في حين أنّ استفادة الساق للشدّة عند العرب، كما لو قلت: (المعركة هي على قدم وساق) بمعنى حمي الوطيس، والعرب تعلم أنّ الحرب ليس لها قدم ولا ساق.

---

١. القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.

٢. يوسف: ٨٢

٣. القلم: ٤٢.

القسم الأوّل

الفصل الأول

تصنيفُ الآيات

تعريفُ المُحكم

تعريفُ المُتشابه

تصنيف الآيات

تصنّف آيات القرآن الكريم من حيث ظهورها وعدمه إلى أقسام ثلاث:

أحدها: ما يتأكّد ظاهرها بالدلائل العقلية فذاك هو المحكم.

ثانيها: الذي قامت الدلائل القاطعة على امتناع ظواهرها، فذاك هو الذي يحكم فيه بأنّ مراد الله تعالى غير الظاهر.

ثالثها: الذي لا يوجد مثل هذه الدلائل على طرفي ثبوته وانتفائه فيكون من حقّه التوقف فيه، ويكون ذلك متشابهاً ولم يتميّز أحد الجانبين عن الآخر.

وفي ذلك يقول إبن كثير في معنى قوله تعالى: (كتاباً متشابهاً مثاني).

قال: ذكروا أنّ المتشابه هو الكلام الذي يكون فيه سياق واحد، والمثاني هو الكلام في شيئين متقابلين كصفة الجنة والنار، وذكر حال الأبرار وحال الفجّار، و نحو ذلك، و أمّا هاهنا فالمتشابه هو الذي يقابل المحكم، و أحسن ما قيل فيه هو الذي نصّ عليه محمد بن اسحاق بن يسار حيث قال: (منه آيات محكمات) فيهنّ حجة الربّ، و عصمة العباد، و دفع الخصوم الباطل ليس لهن تصريف و لا تحريف أمّا وضعن عليه.

قال: والمتشابهات في الصدق ليس لهن تصريف و تحريف و تأويل، ابتلي الله فيهن العباد كما ابتلاهم في الحلال و الحرام ألا يصرفن إلى الباطل و يحرّفن عن الحقّ. و لهذا قال الله تعالى ﴿فاما الذين في قلوبهم زيغ﴾ أيّ ضلال و خروج عن الحق إلى الباطل

﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ أيّ إنما ياخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرّفوه إلى مقاصدهم الفاسده، و ينزلوه عليها لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه، لأنه دافع لهم و حجة عليهم . و لهذا قال الله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَة وَابْتِغَاء تَأْوِيله﴾[1]

أي الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم أنّهم يحتجّون على بدعتهم بالقرآن وهو حجة عليهم لا لهم، كما لو احتجّ النصارى بأنّ القرآن نطق بأنّ عيسى روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وتركوا الاحتجاج بقوله: ﴿إِنْ هُوَ إلاّ عَبْدٌ أنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾[2] و بقوله ﴿إنّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.[3]

---

١. أنظر، تفسير إبن كثير ٣: ٣٥٣.
٢. الزخرف: ٥٩.
٣. آل عمران: ٥٩.

تعريف المُحكم

ينبغي أن نقف عند تعريف المحكم لغة واصطلاحاً ثم نعرّج على تعريف المتشابه.

الإحكام: هو الإتقان، وهو إذا كان الكلام ذا دلالة واضحة بحيث لا يحتمل وجوهاً من المعاني، وهو مأخوذ من الحكم بمعنى المنع والسدّ.

قال إبن منظور: و احكم الامر: اتقنه و الحكيم المتقن الامور.[1]

وفي القاموس: أحكمه أتقنه فاستحكم ومنعه عن الفساد.[2]

وقيل: هو من قولهم حكمت فلاناً وأحكمته عن كذا أيّ رددته ومنعته، ومنه الحاكم، لأنّه يمنع عن الناس الظلم.

والحكم: هو المنع، قال الازهري: و روينا عن إبراهيم النخعي أنّه قال: حكِّم اليتيم كما تحكِّم ولدك أيّ أمنعه من الفساد،[3] والمحكم ما يمنع بإحكامه تطرّق الخلل إلى نفسه أو غيره، والحَكَمَه (بفتحات) لزمام الفرس. والحِكْمَة بمعنى المعرفة التامة والعلم الجازم النافع. وعليه ففي الجميع معنى مشترك هو المنع والإتقان.

---

١. لسان العرب، إبن منظور، مادة حكم.

٢. القاموس المحيط، الفيروزآبادي: مادةّ حُكم، باب الميم فصل الحاء، و مثله في تاج العروس.

٣. لسان العرب، إبن منظور، مادة حكم.

المحكم الذي يُعنينا ما أشارت إليه الآية الكريمة من سورة آل عمران، دون المعنى الأصولي الذي يقابله المنسوخ.

وإذا دقّقنا في معنى المحكم نجده يدلّ على:

أ. انّه مشتق من أحكم وحكم.

ب. أنّ (حكم) يدلّ على معنيين:

١ـ معنى وجودي وهو الإتقان والوثوق.

٢ـ معنى عدمي وهو المنع عن الفساد أو تطرق الخلل إلى نفسه.

والمُحكم اصطلاحاً، كما عند القرطبي:

هو ما ظهر معناه وانكشف كشفاً يرفع الاحتمال. أو هو ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره.[١]

ومثال المحكم في القرآن كثير، بل قل أغلب آيات القرآن هي من المحكمات منها:

قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾.[٣]

المحكم تارة يراد به ما ذكره الأصوليّون وهو المشترك بين النصّ والظاهر، أيّ ما هو راجح الدلالة بحسب الوضع أو القرينة المقامية، أو الحالية المحفوفة مع الكلام، سواء كان الرجحان مانعاً من النقيض وهو احتمال الخلاف، حتى يكون نصاً، أو لم يكن مانعاً من النقيض ويحتمل الخلاف، إلاّ أنّه احتمال مرجوح فيكون ظاهراً.

والمُتشابه المقابل لذلك؛ هو المشترك بين المجمل والمؤول، إذ حمل اللفظ على خلاف الظاهر مؤول، وعلى المتساوي مجمل، والقدر المشترك وهو ما لم يكن راجحاً ـ سواء كان مرجوحاً أو متساوياً ـ يكون متشابهاً.

---

١. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، محمد بن أحمد ٤: ٩.

٢. البقرة: ٢٧٥.

٣. النور: ٢.

وتارة يراد بالمحكم ما كان مدلوله من الأمور المتيقّنة المحكمة من الأمور العالية العلمية. وما لا يكون من ذلك القبيل ولكن يشابه تلك الأمور يمكن اطلاق المتشابه عليه، أيّ اتخذ الشباهة.

وتارة يراد بالمحكم ما هو ثابت في عالم القضاء فلا ينسخ، ويكون المراد من قوله تعالى: بـ ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[1] أيّ الاصل الثابت ، لهذا يستأنس منه أنّ المراد هو القضاء، إذ جعل في آية أخرى وهي:

﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.[2]

جعل عالم المحو والإثبات ـ و هو القدر ـ مقابلاً لأم الكتاب، إلاّ أنّ متابعة ـ مَنْ في قلبه زيغ ـ المتشابه المقابل المحكم إنما هو طلبا لحصول الفتنة وتحرّي الأخذ بالتأويل.[3]

---

١. آل عمران: ٧.

٢. الرعد: ٣٩.

٣. في هذا يذكر ، الملاصدرا الشيرازي (ت.١٠٥٠هـ) في الفصل (١٣) مراتب علم الله سبحانه بالاشياء فيقسّمه إلى ثلاث مراتب : العنايه، القضاء ، القدر. قال: و هي العنايه و القضاء و يقال له (أم الكتاب)، و القدر و يقال له «كتاب المحو و الاثبات» كما أشار اليه بقوله ﴿يمحو الله ما يشاء و يثبت و عنده أم الكتاب﴾ ومحلّها اللوح و القلم. أحدها على سبيل القبول و الانفعال و هو اللوح بقسميه. و الآخر القلم على سبيل الفعل و الحفظ ... الخ. الحكمة المتعالية ٦: ٢٩١.

تعريف المتشابه

أما المتشابه فلغة: يطلق على ما له أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضاً، وعلى ما يشتبه من الأمور أيَ يلتبس، وفي اللسان قال:

والمشتبهات من الأمور المشكلات. والمتشابهات، المتماثلات.. والشُبهة: الالتباس، وأمورٌ مشتبهة ومشبّهةٌ: مشكلة يُشبِهُ بعضها بعضاً.[1]

وفي أساس البلاغة: تشابه الشيئان. واشتبهت الأمور وتشابهت: التبست لإشباه بعضها بعضاً.[2]

واشتبه عليّ الأمر: إذا أشبه غيره فلم تكد تفرُق بينهما، وشبّهت عليّ: اذا لبست الحق بالباطل.[3]

وأصل التشابه أن يشبه اللفظُ اللفظَ في الظاهر، والمعنيان مختلفان، قال سبحانه في وصف ثمار الجنّة: ﴿وأتوا به متشابهاً﴾ أيّ متفق المناظر مختلف في الطعم والمذاق.[4]

و﴿تشابهت قلوبهم﴾ أيّ يشبه بعضها بعضاً في الجحود والقساوة والعناد، فهم في الكفر سواء.

ثم الشبه والشبيه بمعنى المثل، وأشبه الشيءُ الشيءَ أيّ ماثله، وكذا يستعمل هذا في

---

١. لسان العرب، إبن منظور، مادة شبه.

٢. اساس البلاغة، الزمخشري، جار الله محمودبن عمر، دارصادر ، بيروت، ١٩٦٥م.

٣. تأويل مشكل القرآن: ص ١٠١، لابن قتيبة، ط ٢، القاهرة ١٩٧٣.

٤. تأويل مشكل القرآن، وممّا أشار إليه سبحانه إلى معنى المتشابه على لسان بني اسرائيل في قصة البقرة: ﴿إن البقر تشابه علينا﴾ كأنما أرادوا أنّ الذهن يعجز عن التمييز، وربّما قريب من ذلك قولهﷺ الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما أمور متشابهات.

الأمور، فيقال أمر مشتبه ومتشابه اذا أشبهت بعضها بعضاً حتى التبست ولم يفرق بينها.

ومن ذلك المعنى اللغوي توسّع أرباب التفسير في معنى الكلمة، فربطوا المتشابه بالالتباس والشك، قال إبن قتيبة:

قالوا في كل ما غمض ودق متشابه، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره، ألا ترى أنه قد قيل للحروف المقطّعة في أوائل السور: متشابه، وليس الشك فيها والوقوف عندها لمشاكلتها غيرها والتباسها بها.[1]

نستخلص من تلك النصوص أنّ التشابه إذا حصل بين شيئين وعجز الانسان التمييز بينهما سمّي ذلك بالمتشابه، وربّما سمّي أيضاً بالمشكل، لأنه أشكل على الإنسان تمييزه عن غيره، أيّ دخل في شكل غيره فأشبهه وشاكله.

وعليه فكل ما غمض وإن لم يكن غموضه من جهة الشبه، فهو مشكل.

أقول: الذي يعنينا من معنى المتشابه ما أشارت إليه الآية الكريمة من سورة آل عمران بغض النظر عن المعنى الأصولي الذي هو أحد أفراد خفي الدلالة.

فالتشابه من تشابه الوجوه؛ أيّ تماثل بعضها مع البعض كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾.[2]

وقد يتّحد مع المبهم الذي يكشفه التفسير. بينما المتشابه بحاجة إلى التأويل كأكثر آيات: الخلق، التقدير، الصفات؛ صفات الذات وصفات الأفعال.

المتشابه اصطلاحاً

هو اللفظ، المحتمل لوجوه من المعاني، وكان موضع ريب وشبهة، ومن ثم فهو كما يصلح للتأويل إلى وجه صحيح يصلح للتأويل إلى وجه فاسد، لذا كان فيه مطمع أهل الزيغ.

ورب سائل يقول ما النسبة بين المتشابه والمبهم؟

النسبة بين المتشابه والمبهم هو العموم المطلق كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ

---

١. تأويل مشكل القرآن: ص ١٠٢.

٢. البقرة: ٧٠.

صدْرَهُ للإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾.[١]

أمّا المتشابه في الاية فهو من جهة نسبة الإضلال إليه سبحانه وتعالى، وأما الإبهام فمن جهة كيفية حصول ذلك الإنشراح والضيق. وقد لا تكون الآية من المتشابهات مثل ﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾.

والمتشابه يقابل المحكم، وقد عرفت أنّ المتشابه هو ما احتمل أكثر من معنى، ولمعرفة المعنى يحتاج إلى التدبر والتأمل، والبعض قال: إنّ المتشابه مما استأثر الله بعلمه ولا سبيل لأحد إلى معرفته.

القرآنُ كلُّه محكمٌ

ما دلّ على أنّ القرآن كلّه محكم قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ ءَايَاتِه وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.[٤]

المراد من المحكم بهذا المعنى كونه كلاماً حقاً فصيح الألفاظ صحيح المعاني، وكلّ قولٍ وكلامٍ يوجد كان القرآنُ أفضل منه في فصاحة الألفاظ وقوة المعنى.

والعرب تقول في البناء الوثيق والعقد الوثيق الذي لا يمكن حلّه: محكم، ويكاد أغلب العلماء يتّفقون في تعيين مدلول هذا الوصف، واستعماله الشامل، حيث يجدون هناك علاقة مشتركة بين تلك الآيات التي صدق عليها إطلاق وصف الإحكام.

وتتضح هذه العلاقة بإحكام نظم آيات القرآن، وإتقانها، وما فيها من التماسك والانسجام في الأفكار والمفاهيم والسنن والقواعد والنُظم، فأوّله كآخره، ووسطه كطرفيه، لا يعتريه النقض ولا يدخله الخلل، بل هو في السبك والفصاحة والبلاغة على نسق واحد، لا يضاهيه نص ولا يشبهه قول.

---

١. الأنعام: ١٢٥.

٢. يونس: ١. قال بعضهم أن حكيم في هذه الآية بمعنى محكم. انظر لسان العرب مادة حَكَم.

٣ هود: ١.

٤. الحج: ٥٢.

وعليه، فالعلامة المشتركة بين الآيات المحكمة يمكن تصوّرها من جهتين: إمّا من حيث إحكام النظم وإتقانه، وإمّا من حيث الحكمة التي اشتملت آياته عليها.

فمن حيث النظم فإنّ جميع الايات في الإحكام على نسق واحد و هو تشابه بعضه البعض الآخر، قال تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾.[١]

لذا ليس فيه اختلاف ولا تناقض، وقد أكّد سبحانه وتعالى هذا الإتقان فقال عزّ من قائل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾.[٢]

و أمّا من حيث الحكمة، فلكل آية، حكمة مستودعة فيها و سرّ خاص بها.

القرآن كله متشابه

ما دل على أن القرآن كلّه متشابه:

قوله تعالى من سورة الزمر: ﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيث كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾.[٣]

والمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً في الحسن، ويصدق بعضه بعضاً، وإليه الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً﴾.[٤]

أي لكان بعضه وارداً على نقيض الآخر، و لتفاوت نسق الكلام في الفصاحة والركاكة.

وعليه، إنّ اطلاق وصف المتشابه على القرآن ـ من حيث المجموع ـ لكون بعضه يشبه البعض الآخر في الأسلوب والهدف، ولسلامته من التناقض والتفاوت والاختلاف، ولأنّ بعضه يصدق بعضه الآخر.

المتشابه في كتب اللغة والتفاسير

قسّم الراغب ـ في كتابه المفردات ـ الآيات إلى ثلاثة أقسام:

---

١. الزمر: ٢٢.
٢. النساء: ٨٢.
٣. الزمر: ٢٣.
٤. النساء: ٨٢.

١ـ آيات محكمة على الاطلاق.

٢ـ آيات متشابهة على الاطلاق.

٣ـ آيات محكمة من وجه متشابهة من وجه.

ثم قسم المتشابه إلى ثلاثة اقسام:

أ) متشابه من جهة اللفظ فقط، و هذا على قسمين:

* أحدها يرجع إلى الألفاظ المفردة.

* وأخرى يرجع إلى جهة الكلام المركب.

ب) متشابه من جهة المعنى فقط.

ج) متشابه من جهتي اللفظ والمعنى

أما المتشابه من جهة اللفظ فهو كالآتي:

* منه يرجع إلى الألفاظ المفردة وهذا على قسمين؛ متشابه من جهة:

أ) الغرابة، كقوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبّاً﴾،[1] وكقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾.[2]

ب) ومتشابه من جهة الاشتراك:

كقوله تعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.[3]

* ومنه يرجع إلى جهة الكلام المركب وفيه أقسام ثلاث:

أ) منه لاختصار الكلام كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾.[4]

ب) ومنه للزيادة كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.[5]

---

١. عبس: ٣١.
٢. الصافات: ٩٤.
٣. الفتح: ١٠.
٤. النساء: ٣.
٥. شورى: ١١.

لأن مجيء الكاف (كمثله) جعل المعنى فيه نوع من الغموض، وإذا قال ليس مثله شيء كان اظهر للسامع.

ج) ومنه لنظم الكلام كقوله تعالى: ﴿أنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجَا قَيِّماً﴾.[١]

وتقديره والله العالم: انزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجاً.

وأمّا المتشابه من جهة المعنى: تلك التي تندرج في بيان أوصاف الله سبحانه، وأوصاف القيامة، وبعض الأمور الغيبية، وما يتعلق بعضها بالجانب العقائدي كالقبر، والبرزخ، والرجعة، والنشور، و...

وأمّا المتشابه من جهة اللفظ والمعنى فيقسّمه الراغب إلى خمسة أقسام:

أ) من جهة الكميّة كالعموم والخصوص.[٢]

ب) من جهة الكيفية كالوجوب والندب.[٣]

جـ) من جهة الزمان.[٤]

د) من جهة المكان.[٥]

هـ) من جهة الشروط صحة وفساداً[٦] وفي كل ذلك نظر فتأمل.

قد نتفق مع الاصفهاني في بعض تقسيماته في معنى المتشابه دون البعض الآخر، لأن من الصعب أن نتصوّر إنّ الإحكام والتشابه وصف للألفاظ. بل ما ورد في القرآن الكريم أنّ المتشابه وصفٌ لكل الآية، انظر قوله تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾.[٧]

---

١. الكهف: ١ ـ ٢.أقول: و في بعض تقسيماته يرد عليه كلامٌ ليس هذا محلّه.

٢. ومثّل له بقوله تعالى: ﴿فاقتلوا المشركين﴾ التوبة: ٥

٣. ومثّل له بقوله تعالى: ﴿فَانكحُوا مَا طَابَ لَكُمْ منَ النِّسَاءِ﴾ النساء: ٣.

٤. ومثّل له بقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾آل عمران:١٠٢.

٥. ومثّل له بقوله: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ التوبة: ٣٧؛ وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ البقرة: ١٨٩.

٦. أنظر: المفردات في غريب القرآن مادة شبه.

٧. آل عمران: ٧.

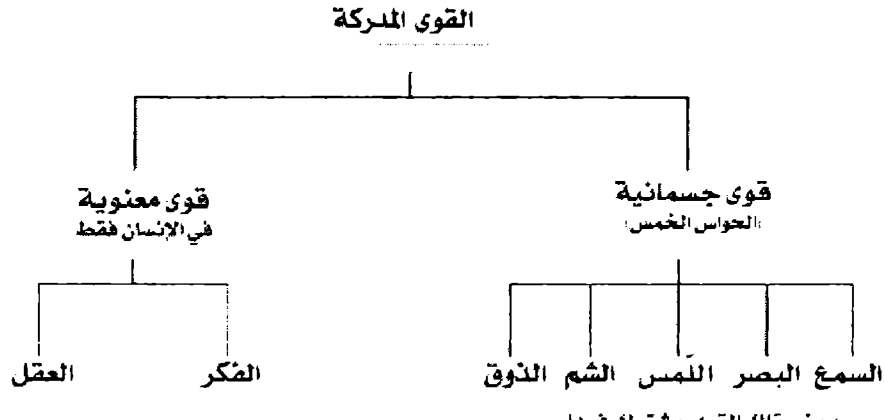
فهل يعني عبارة ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ مخصوصة في اللفظ المتشابه؟ وهل سبحانه جل اسمه كان يعني من تلك الآية المباركة أنّ في القرآن الفاظ غامضة بعضها يشبه البعض الآخر؟!

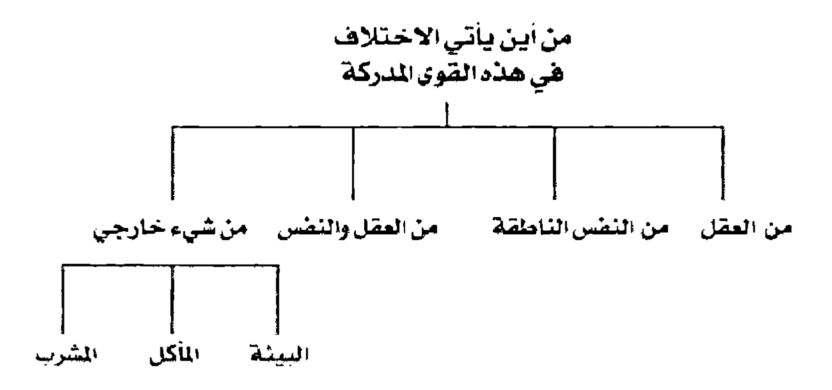
ثم الذي في قلبه مرض وزيغ إنّما يتبع ما تشابه أيّ ما غمض وأشكل فهمه، وذلك انّما يكون في معنى الآية جملة لا مقتصراً على لفظ ما، أضف إلى ذلك أنّ اللفظة الواحدة المجرّدة لا تثير الغرابة والغموض فيما لو سلّمنا أنّها لفظة غريبة، إذ بالإمكان الرجوع إلى قواميس اللغة أو إلى أهل الخبرة ومن له معرفة بلغة العرب، لأنّ القرآن نزل بلغتهم وبذلك يستطيع أنْ يحصل على معنى تلك اللفظة بأيسر طريق ومع ذلك أهل الباطل لا يسلكون ذلك الطريق الصحيح، والعلة واضحة أشارت إليه الآية الكريمة إنما يتّبعون ذاك الطريق: ﴿ابتغاء الفتنة﴾.

وبعد كل ذلك: إنّ الآيات المتشابهة نسبة إلى الآيات المحكمة قليلة جداً، وقوله تعالى صريح.. ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ إذن هي آيات قلائل.

ولو اتبعنا تفصيل الراغب لشمل المتشابه اغلب آيات القرآن الكريم وهذا خارج عن المعقول.

وعليه يمكن إجمال القول فيما يذهب إليه الراغب في معنى المتشابه هو أن المتشابه ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، سواء كان الإشكال من جهة اللفظ أو من جهة المعنى. ثمّ مراتب الادراك يختلف من شخص لآخر.





مراتب الادراك عند الأفراد

من هنا ينشأ اختلاف الاستعدادات في مراتب الاستفادة وتحصيل العلوم، قال النّبي ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم».

هذا الاختلاف يحصل إذا كان منشؤه مستنداً إلى أسباب وعلل ظاهرية وهو في اغلب العلوم. أما بالنسبة للوحي فالعلم المستند إليه ليس فيه أيّ اختلاف، فعلم الأنبياء من السماء، ولم يختلف الأنبياء في علمهم ذاك.

بينما نجد إدراك الناس يختلف من فرد إلى آخر، وفهمهم كذلك، لأن القدرات والعوامل المؤثّرة فيهم متنوعة، مما يؤدي إلى الالتباس عند بعضهم في كشف المعنى للآية الكريمة، فبعض الموارد من القرآن محكمة عند شخص وهي متشابهة عند غيره.

واستناداً إلى ما ذكرناه يكون المحكم والمتشابه من الأمور النسبية لِما عرفنا أن الاستعدادات في الإدراك عند الأفراد مختلفة لذا فإن المحكم والمتشابه يكون من الأمور النسبية الإضافية لاختلاف منشئهما وسببهما.

المحكم والمفهوم العرفي

ثم إنّ المحكم والمتشابه من المفاهيم العرفية ويتّضح هذا المعنى فيما لو دقّقنا في تعريف المتشابه أنّه:

(ما لا يعرف المراد منه إلا بالقرينة)، مثاله: (يد الله فوق أيديهم) لا يعرف ابتداءاً ما المراد منه إلا بالرجوع إلى قوله تعالى: (ليس كمثله شيء) فيعرف من اليد: القوة والإحاطة أو القدرة بالملازمة. وكذا بالنسبة إلى المحكم يعرف بأنه: (ما يعرف المراد منه من دون قرينة دالة عليه) كقوله تعالى: ﴿أقم الصلاة﴾ وكقوله تعالى: ﴿وعلى الناس حِج البيت﴾.

كيف يحصل العلم بالتأويل، و بالمحكم، و بالمتشابه؟

علم التأويل، وعلم المحكم والمتشابه يحصل من الاستعدادات المكنونة في الإنسان.

هذا الاستعداد الذي أشرنا إليه في الصفحات السابقة يختلف من شخص إلى آخر:

١ـ منهم مَنْ لا يتجاوز فهمه القول الصريح المكشوف.

٢ـ منهم مَنْ لا يتجاوز ذهنه إلى اللوازم القريبة.

٣ـ منهم مَنْ لا يتعدّى إلى المعنى الأكثر عمقاً ويتجاوز إلى اللوازم والملزومات البعيدة.

٤ـ منهم مَنْ لا يتعدّى ذهنه إلى المعاني الباطنة.

فهنا أمور:

أولاً: يتحقق كل ذلك من الحس الفطري المستند إلى الاستعداد أو الدرك، وهو أمر غير اختياري يختلف من شخص إلى آخر.

ثانياً: أن المحكم والمتشابه ما كان بحسب النوع، وهو المدار في الخطابات المطروحة للناس والملقاة عليهم، والمراد بالمتشابه المستقر لا الزائل بالتدبر والتعمق.

ثالثاً: قد يكون المعنى في المتشابه يتجاوز العشرة لكنّها تندرج في باب الاشتباه بين المفهوم والمصداق.

ولمعرفة المفهوم والمصداق وبشكل موجز أقول:

إنّ المتدبّر في القرآن سوف يجد كل آية من آياته لها مدلول ينطق بمعناها، ويُبيّن مقصودها والمراد منها، لكن سينكشف لنا إنّ مداليل بعض الآيات يمكن التعرّف عليها مباشرة، دون شك والتباس، بينما نجد آيات أخر لها أكثر من مدلول تتشابه فيما بينها فتبعث على الحيرة والشك.

وعليه، ينبغي إرجاع بعض المداليل إلى بعضها الآخر، ومن خلال ذاك الجمع لتلك المداليل سوف ينكشف المعنى الحقيقي الواقعي الذي تدلّ عليه الآية الكريمة، ولتحديد هذا الكلام بصورة أدق نقول: إنّ الآيات المتشابهة التي تخصّ معنى التوحيد و صفات الخالق، صفات الذات وصفات الأفعال،لابدّ أن نرجعها إلى الآيات المحكمات، فهي التي تتضمن أصولاً قرآنية ثابتة ومسلّمة، وفي هذه الأصول الثابتة سوف نتعرّف على جملة من المفاهيم القرآنية منها: وجود الصانع، مفهوم التوحيد، مفهوم النبوة، المعاد، الروح، ومحاسبة النفس، و... وبمثل ذلك سوف نتعرّف على الأحكام والمفاهيم الأخرى من خلال مدلول الآية.

المعاني الواردة في بيان المحكم والمتشابه

تنقسم الآيات من حيث وضوح الدلالة وخفائها ـ بحسب أفهام أغلب الناس ـ إلى محكم ومتشابه، كما أشارت إليه الآية الكريمة من آل عمران.

وهما مأخوذان من الإحكام الذي هو ـ كما سبق ـ الإتقان، والتشابه الذي هو تماثل

.. د بغيره، فيحصل الاشتباه فيه، وإنْ اختلفوا في المراد بهما وقيل:

١ـ إنّ المحكم ما اتّضح معناه وظهرت دلالته لكل عارف باللغة. والمتشابه ما لا يعلم .. اد به إلاّ بقرينة تدلّ عليه. فاللغات الغامضة لا توجب التشابه، والمجازات كلّها منه على .. حد، وإنْ كان يمكن أنْ يفرّق بين القرائن، حيث أنّ القرائن المتصلة سيّما اللفظية منها لا .. شابه معها أصلاً.

٢ـ قيل إنّ المحكم هو الناسخ أو ما لم ينسخ، أو ما لم يخصّص ولم يقيد أيضاً، .. المتشابه هو المنسوخ أو ما يشمل المخصّص والمقيد.

٣ـ وقيل: إنّ المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما يحتمل .. جهين فصاعداً.

٤ـ وقيل: إنّ المحكم ما لم تتكرر الفاظه، والمتشابه هو المتكرّر.

٥ـ وقيل إنّ المحكم ما يعلم تعيين تأويله، والمتشابه ما لا يعلم تعيين تأويله كقيام الساعة.

٦ـ وفي الصحاح والمصباح: المتشابهات تفسّر بالمتماثلات، وفي القاموس سورة محكمة أيَ غير منسوخة، والآيات المحكمات كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾[1] إلى آخر السورة. أو التي أحكمت فلا يحتاج سامعها إلى تأويلها لبيانها كقصص الأنبياء.

أقول: وربما سها صاحب القاموس عندما أشار إلى المحكمات إلى آخر سورة الأنعام، بل إن الخبر الوارد عن إبن عباس هي الآيات الثلاث (١٥١، ١٥٢، ١٥٣) من سورة الأنعام.

٧ـ ذكر الطريحي في مجمعه أنّ المحكم في اللغة هو المضبوط المتقن، انظر مادة حكم.

٨ـ المحكم ما اتضح وظهرت دلالته على المعنى المقصود من المخاطبين، والمتشابه ما لم تتضح دلالته للابهام أو الاشتراك، أو كان المفاد منه متعذراً لإرادة مخالفته لما ثبت بالعقل أو النقل القاطع به، كالآيات الدالة على ثبوت الجوارح والجهات لله سبحانه، وثبوت الإضلال والجبر منه تعالى، وغيرها، مما ثبت خلافه بالضرورة من الدين إذْ لم تقم هناك قرينة على تعيين شيء مما يخالف الظاهر، واتضحت دلالته لكن المعنى ليس مقصوداً من

---

١. الأنعام: ١٥١.

المخاطبين لطرو النسخ أو التخصيص والتغيير على وجه و إنْ كان الأظهر خلافه.

٩ـ المحكم ما يُعمل به، والمتشابه الذي يشبه بعضه بعضاً، عن مسعدة بن صدقة[١] قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، قال عليه السلام: «الناسخ الثابت المعمول به، والمنسوخ ما قد كان يعمل به ثم جاء ما نسخه، والمتشابه ما اشتبه على جاهله».

وفي رواية أخرى الناسخ الثابت والمنسوخ ما مضى، والمحكم ما يعمل به، والمتشابه الذي يُشبه بعضه بعضاً.[٢]

شبهات الملاحدة

إنّ من أصيب بمرض فانحرف عن الصراط السوي إلى السلوك المعوّج المخالف للفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها تراه ينفذ في تشكيكه إلى القرآن كي يستهوي ضعاف العقول فيضع بصره الحالك على الآيات المتشابه.

فبعض الملاحدة يهتف بقوله مخاطباً المسلمين.. إنّكم تقولون إنّ تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام الساعة، ثم إنّا نراه بحيث يتمسّك به صاحب كل مذهب على مذهبه، فالجبري يتمسّك بآيات الجبر كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾.[٣]

والقدري يقول: بل هذا مذهب الكفار بدليل أنّه تعالى حكى ذلك منهم في معرض ذمّهم في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾.[٤]

وأهل الرؤية يتمسّكون بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.[٥]

والنافين للرؤية يتمسكون بقوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾.[٦]

---

١. من أصحاب الإمام الصادق والكاظم عليهما السلام ورواياته في غاية الوثاقة والصحة على أنه عامي المذهب.
٢. تفسير العياشي ١: ١٠، ١١؛ وبحار الأنوار ١٩: ٣٠ و٩٤.
٣. الأنعام: ٢٥.
٤. فصلت: ٥.
٥. القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.
٦. الأنعام: ١٠٣.

و يتمسّكون بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.[1]

ومثبت الجهة يتمسّك بقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.[2]

وبقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.[3]

ثم هؤلاء الملاحدة يدّعون أن كل فريق ممّا تقدم يسمّى الآيات الموافقة لمذهبه محكمة، والآيات المخالفة لمذهبه متشابهة، وربما انتهى الأمر في ترجيح بعضها على بعض إلى ترجيحات سقيمة ووجوه ضعيفة، فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتاب ـ الذي هو مآل الجميع إليه في كل نواحي الدين إلى يوم القيامة ـ متشابهاً ؟ أليس أنه لو جعله ظاهراً جلياً نقياً عن هذه المتشابهات كان أقرب إلى حصول الغرض[4]؟

أجاب بعض العلماء كما يحكيه الفخر الرازي مبيّناً فوائد المتشابهات فذكر:

أولاً: أنّه متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق، وزيادة المشقة توجب مزيداً من الثواب، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.[5]

ثانياً: لو كان القرآن محكماً بالكلية لما كان مطابقاً إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلاً لكل ما سوى ذلك المذهب، وذلك ينفّر أرباب المذاهب عن قبوله وعن النظر فيه، فالانتفاع به إنّما حصل لمّا كان مشتملاً على المحكم وعلى المتشابه، فحينئذ يطمع صاحب كلّ مذهب أن يجد فيه ما يقوّي مذهبه، ويؤثر مقالته، فكما ينظر فيه جميع أرباب المذاهب، ويجتهد في التأمل فيه كل صاحب مذهب، فإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسّرة للمتشابهات، فبهذا الطريق يتخلّص المبطل عن باطله ويصل إلى الحق.

ثالثاً: أنّ القرآن إذا كان مشتملاً على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل

---

١. الشورى: ١١.

٢. النحل: ٥٠.

٣. طه: ٥.

٤. تفسير الكبير ٧: ١٧١.

٥. آل عمران: ١٤٢.

العقل، وحينئذ يتخلّص عن ظلمة التقليد، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة، أما لو كان كلّه محكماً لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية فحينئذ كان يبقى في الجهل والتقليد.

رابعاً: لـمّا كان القرآن مشتملاً على المحكم والمتشابه، افتقروا إلى تعلّم طرق التأويلات وترجيح بعضها على بعض، وافتقر تعلّم ذلك إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وعلم أصول الفقه، ولو لم يكن الأمر كذلك ما كان يحتاج الإنسان إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة فكان إيراد هذه المتشابهات لأجل هذه الفوائد الكثيرة.

خامساً: وهو السبب الأقوى في هذا الباب، أنّ القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه، ظنّ أنّ هذا عدم ونفي فوقع في التعطيل، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهّمونه ويتخيّلونه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدلّ على الحق الصريح، فالقسم الأوّل وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر يكون من باب المتشابهات، والقسم الثاني وهو الذي يكشف لهم في آخر الأمر هو المحكمات.[١]

ما الفرق بين المتشابه والمبهم؟

المتشابه هو: المحتاج إلى التأويل مع حاجته إلى إزاحة الإبهام من الكلام، وهو المحتاج ايضاً إلى دفع الشبهة عنه، لذا هو أخصّ من المبهم المفتقر إلى رفع الإبهام، فتأويل المتشابه فيه رفع ودفع؛ رفع للإبهام ودفع للشبهة.

أمّا المبهم هو المحتاج إلى التفسير لكن ليس فيه تشابه، ولا هو موضع ريب وشبهة، وإنّما أحاط بالآية شيء من الإبهام، فيعمد المفسّر إلى إزاحة ذلك..

وعليه، إنّ تفسير المبهم هو رفع للإبهام فقط.

ما هي عوامل الإبهام؟

الإبهام كما عرفت يحتاج إلى تفسير، لكن متى نحتاج إليه؟ يتم الجواب فيما لو عرفنا عوامل

---

١. التفسير الكبير، الفخر الرازي ٧: ١٨٥.

الإبهام، واختصاراً يمكن أن نوجزها في عدة نقاط:

١ـ من عوامل الإبهام: غرابة الكلمة أو كونها غير مألوفة في الاستعمال عند بعض القبائل العربية من ذلك:

الصلد: النقي، أو الأجرد الذي لا تراب عليه. الصفوان: الحجر الأملس.

الإملاق: الجوع. المنسأة: العصا. الودق: المطر. بُسّت: تفتّتت.

٢ـ من عوامل الإبهام تلك الألفاظ التي وردت في بعض الآيات تُنبئ عن ممارسات كانت في الجاهلية، ولا يزول ذلك الابهام ما لم نفهم بعض عادات العرب وسيرتهم الذاتية، لذا ينبغي مراجعة التاريخ للإطلاع على تلك العادات، من ذلك: لفظة النسيء،[1] وإتيان البيوت من ظهورها.[2]

وما شاكل ذلك من التعابير، أو التي تحتاج إلى بيان وتفسير لكونها تفتقر إلى تفاصيل، لذا ينبغي مراجعة السّنة واقوال السلف لمعرفة معنى الصلاة مثلاً أو الزكاة وكيفية أداء هذه العبادة.

٣ـ من عوامل الإبهام: هناك تعابير وردت في القرآن تحتاج إلى بيان ذوي الاختصاص، كالدابة في ﴿قوله تعالى﴾: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾.[3]

وكلمة (البرهان) التي وردت في ﴿قوله تعالى﴾: ﴿لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾.[4]

وكلمة الروح كما في ﴿قوله تعالى﴾: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائكَةُ﴾.[5]

٤ـ من عوامل الإبهام: استعارات دقيقة في معانيها تحتاج إلى تأمّل كبير كقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ﴾.[6]

---

١. التوبة: ٣٧.

٢. البقرة: ١٨٩.

٣. النمل: ٨٢.

٤. يوسف: ٢٤.

٥. النبأ: ٣٨.

٦. يس: ٦٥.

مع صحابة الرسولﷺ في تحديد معنى المحكم و المتشابه

رأي جابر بن عبد الله

تقدّم أنّ المحكمات من القرآن: ما عرف تأويله، وفهم معناه وتفسيره. والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه من سبيل، مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه، وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج، وفناء الدنيا، وما اشبه ذلك، ونحو الحروف المقطّعة في أوائل السور.

قال إبن شهر آشوب: وقال جابر: المحكم ما يعلم تعيين تأويله والمتشابه ما لا يعلم تعيين تأويله.[١]

و بعضهم حصر المتشابه في الحروف المقطعة،[٢] وهو منقول عن إبن عباس ايضاً كما سيأتي.

قال البغوي (ت ٥١٠هـ ق) في تفسيره بعد ما أورد قول إبن عباس: وقيل: المحكمات ما أوقف الله الخلق على معناه، والمتشابه ما استأثر الله تعالى بعلمه لا سبيل لأحد إلى علمه نحو: الخبر عن أشراط الساعة، وخروج الدجّال، ونزول عيسىعليه السلام، وطلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة وفناء الدنيا.[٣]

رأي إبن عباس في المحكم والمتشابه

ذكر الطبري في (جامع البيان) خمسة آراء في معنى المحكم والمتشابه في ذيل تفسير الآية المباركة(٧) من سورة آل عمران.

أما الرأي الأول فقد أكّدته الروايات المنقولة عن إبن عباس، وعن إبن مسعود، وعن قتادة، وعن الربيع بن أنس، وعن الضحاك، وعن آخرين لم يذكر اسماءهم، كانت تلك النقول متفقة على أن الآيات المحكمة هي الناسخة والآيات المتشابهة هي المنسوخة التي لا يعمل بها، ويؤمن بها، وعبارته هي: قال بعضهم: المحكمات من القرآن: المعمول بهنّ، وهنّ

---

١. متشابه القرآن ومختلفه: ص ٢.

٢. تفسير البغوي بهامش الخازن ١: ٣٢٠، ١: ٤٢٦.

٣. المصور، ١: ٤٢٧.

..حات، أو المثبتات الأحكام، والمتشابهات: المتروك العمل بهنّ، المنسوخات.

وقد أورد الطبري في هذا المعنى ثلاثة عشر رواية بأسانيد مختلفة، آثرنا أن نذكرها[1] .. ..طّلع عليها الدارس والمحقق وإليك نصّها:

١ـ الطبري بسنده عن العوّام عمّن حدّثه، عن إبن عباس في قوله: ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ ..حكمات﴾ قال: هي الثلاث الآيات التي ههنا: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى .. آيات، والتي في بني اسرائيل ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾ إلى آخر الآيات.

٢ـ عنه أيضاً بسنده عن علي بن أبي طلحة عن إبن عباس، قوله ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ ..كتابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ المحكمات: ناسخه، وحلاله، وحرامه، .. حدوده، وفرائضه، وما يؤمن به ويعمل به. وقال ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾، والمتشابهات: ..سوخه، ومقدّمه، ومؤخره، وامثاله، وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به.[2]

٣ـ عنه أيضاً بسنده عن إبن عباس في قوله ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ إلى ﴿وَأُخَرُ ..متشابهَاتٌ﴾ والمحكمات التي هي أمّ الكتاب: الناسخ الذي يدان به ويعمل به، والمتشابهات: هنّ المنسوخات التي لا يدان بهنّ.

٤ـ عنه أيضاً بسنده عن أبي مالك وأبي صالح عن إبن عباس وعن مرّة الهمداني، وعن إبن مسعود، وعن ناس من أصحاب النّبيﷺ: ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾: أمّا الآيات المحكمات فهنّ الناسخات التي يعمل بهنّ، وأمّا المتشابهات فهنّ المنسوخات.

٥ـ عنه أيضاً بسنده عن قتادة: ﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ والمحكمات: الناسخ الذي يعمل به ما أحلّ الله منه حلاله وحرّم فيه حرامه، وأما المتشابهات فالمنسوخ الذي لا يعمل به ويؤمن به.

---

١. حرصنا على أن لا نذكر أسانيد تلك الروايات، كما تركنا التعرض إلى الرواة وحالاتهم من الجرح والتعديل خشية الإطالة.

٢. رواه في الدر المنثور أيضاً من طريق علي عن إبن عباس، وقد أخرجه إبن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

٦ـ عنه أيضاً بسنده عن قتادة في قوله: ﴿آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ﴾ قال المحكم: ما يعمل به.

٧ـ عنه أيضاً بسنده عن الربيع: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: المحكمات الناسخ الذي يعمل به، والمتشابهات: المنسوخ الذي لا يعمل به ويؤمن به.

٨ ـ عنه أيضاً بسنده عن الضحاك في قوله: ﴿آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الناسخات ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ قال ما نسخ وترك يُتلى.

٩ـ عنه أيضاً بسنده عن الضحاك بن مزاحم قال: المحكم ما لم ينسخ، وما تشابه منه: ما نسخ.

١٠ـ عنه أيضاً بسنده عن الضحاك في قوله: ﴿آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الناسخ: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ قال: المنسوخ.

١١ـ عنه أيضاً بسنده عن الربيع: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: المحكمات الذي يعمل به.

١٢ـ عنه أيضاً بسنده عن عبيد بن سليمان قال سمعت الضحاك يقول: في قوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ يعني الناسخ الذي يعمل به، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ يعني المنسوخ، يؤمن به ولا يعمل به.

١٣ـ عنه أيضاً بسنده عن الضحاك: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾[١] قال: ما لم ينسخ ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ قال: ما قد نسخ.

هذه الروايات تمثّل الرأي الأول في معنى المحكم والمتشابه.

ثم ذكر الطبري الرأي الثاني، فقال: وقال آخرون: المحكمات من أيَ الكتاب ما أحكم الله فيه بيان حلاله وحرامه، والمتشابه منها: ما أشبه بعضه بعضاً في المعاني، وإنْ اختلفت ألفاظه: وأُسند هذا الرأي إلى مجاهد[٢] وفيه روايتان بطريقين.

---

١. آل عمران: ٧.

٢. بسنده عن مجاهد في قوله: ﴿منه آيات محكمات﴾ ما فيه من الحلال والحرام، وما سوى ذلك، فهو متشابه يصدق بعضه بعضاً وهو مثل قوله ﴿وما يضلّ به إلا الفاسقين﴾ ومثل قوله ﴿كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون﴾ ومثل قوله: ﴿والذين اهتدوا زادهم هدىً وآتاهم تقواهم﴾.

ثم أورد الرأي الثالث؛ فقال: وقال آخرون: المحكمات من أيّ الكتاب ما لم يحتمل من التأويل غير وجه واحد؛ والمتشابه منها: ما احتمل من التأويل أوجهاً.

ونسب هذا الرأي إلى محمد بن جعفر بن الزبير، وذكر فيه رواية واحدة؛ وهي بسنده عن ابن الزبير قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ قال: فيهن حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لهـا تصريف ولا تحريف عمّا وضعت عليه، وأخر متشابهة في الصدق، لهنّ تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله فيهن العباد، كما ابتلاهم في الحلال والحرام، لا يصرفن إلى الباطل ولا يحرّفن عن الحق.

ثم أورد الرأي الرابع:

فقال: وقال آخرون: معنى المحكم: ما أحكم الله فيه من أيّ القرآن وقصص الأمم ورسلهم الذين أرسلوا إليهم ففصّله ببيان ذلك لمحمدﷺ وأمته.

والمتشابه: هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم، عند التكرير في السور، فقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وقصة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني.

وأسند هذا القول إلى إبن زيد وهو الذي استشهد بالآية ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾.[1]

وذكر الطبري الرواية ـ وهي طويلة ـ جاء في ذيلها: وقال في المتشابه من القرآن: من يرد الله به البلاء والضلالة، يقول: ما شأن هذا لا يكون هكذا، وما شأن هذا لا يكون هكذا.

ثم أورد الرأي الخامس، قال: وقال آخرون: بل المحكم من أيّ القرآن، ما عرف العلماء تأويله، وفهموا معناه وتفسيره، والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك نحو الخبر عن وقت خروج عيسى بن مريم، ووقت طلوع الشمس من مغربها، وقيام الساعة، وفناء الدنيا، وما أشبه ذلك، فإن ذلك لا يعلمه أحد، وقالوا إنما سمّى الله من أيّ الكتاب المتشابه: الحروف المقطعة التي في أوائل بعض سور القرآن، من نحو: الم،

---

١. ذكر الراوي شواهد من قصص الأنبياء منها تندرج في الآيات المحكمة مثل قصص النبي محمدﷺ، وحديث نوح وعاد، وصالح، وابراهيم، ولوط، وشعيب، كل ذلك يقين على حد تعبيره، والمتشابه مثل قصص موسى عليه السلام إذْ ذكرها القرآن في أماكن كثيرة... الخ.

والمص، والمر، والر، وما أشبه ذلك، لأنّهنّ متشابهات في الألفاظ، وموافقات حروف حساب الجمل، وكان قوم من اليهود على عهد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، طمعوا أن يدركوا من قِبَلها معرفة مدة الإسلام وأهله، ويعلموا نهاية أجل محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وأمته، فأكذب الله أحدوثتهم بذلك، وأعلمهم أن ما ابتغوا علمه من ذلك من قِبَل هذه الحروف المتشابهة لا يدركونه، ولا من قِبَل غيرها، وأن ذلك لا يعلمه إلا الله. وهذا قولٌ ذكر عن جابر بن عبدالله بن رباب.

بعد كل هذه الأقوال يقول الطبري:

فإذا كان المتشابه هو ما وصفنا، فكل ما عداه محكم، لأنه لا يخلو من أن يكون محكماً، بأنه بمعنى واحد، لا تأويل له غير تأويل واحد، وقد استغنى بسماعه عن بيان مبيّنه، أو يكون محكماً، وإن كان ذا وجوه وتأويلات وتصرّف في معان كثيرة، فالدلالة على المعنى المراد منه، إما من بيان الله تعالى ذكره عنه، أو بيان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لأمته، ولن يذهب علم ذلك عن علماء الأمة، لما قد بيّنا.[١]

تعقيب على قول إبن عباس

أقول: لم يرد عندنا في اللغة أنّ المتشابه مرادف للمنسوخ، والمحكم مرادف للناسخ وربما إبن عباس ـ أو ممّن حمل قوله ذاك على هذا التقسيم ـ قد نظر إلى الآية الشريفة (٥٢) من سورة الحج:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللهُ ءَايَاتِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[٢]

بينما الآية (٥٤) قد دلّت على أن العلم يؤدّي إلى الإيمان، بل إنّ الإيمان قرين العلم كما

---

١. جامع البيان ٣: ١٧٥.

٢. الحج: ٥٢ ـ ٥٤.

في قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾.[1]

فالراسخون في العلم والمؤمنون... شأنهم الإيمان برسالات السماء والأنبياء.

وأكثر وضوحاً في ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ﴾.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.[3]

وقوله تعالى: ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.[4]

في هذه الموارد من الآيات الكريمة ـ وفي غيرها ـ يتضح أنّ الإيمان قرين العلم، وهذا مثله جاء في سورة آل عمران حيث قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.[5]

إنّه الإيمان بكل ما في القرآن بدون استثناء، نعم في سورة الحج أنّ النسخ الذي ورد إنّما هو نسخ الأمنيات ـ إن وقعت ـ وإزالتها من قلب النبيّ ﷺ لكونها من الشيطان، أمّا ما يلقيه الله سبحانه في قلب نبيّه إنّما هو الحق، والآيات البيّنات هي من الحق؛ وتلك الآيات لا يدخلها الريب ولا يعتورها الشك لكونها موصوفة بقوله تعالى: ﴿يُحْكِمُ اللهُ ءَايَاتِهِ﴾ وهذا الإحكام غير الإحكام الذي هو مقابل المتشابه.

والنسخ في سورة الحج غير النسخ الاصطلاحي والذي منه آيات منسوخة وأخرى ناسخة.

لذا قد توهّم من قال: إن المحكم الذي يقابل المتشابه في سورة آل عمران هو الناسخ، والمتشابه هو المنسوخ.

وربّما سألت ما هو الدليل؟، أقول و يتم الاستدلال بعدة وجوه:

---

١. النساء: ١٦٢.
٢. الروم: ٥٦.
٣. سبأ: ٦.
٤. النمل: ٤٢.
٥. آل عمران: ٧.

أولاً: أنّ الإحكام المقابل بالنسخ غير الإحكام المقابل بالمتشابه.

ثانياً: النسخ في سورة الحج معناه رفع ما ألقاه الشيطان، لا رفع ما شرّعه الله وسوف يتضح لك إنْ شاء الله أنّ النسخ في اصطلاحهم رفع ما شرّعه الله من حكم.

ثالثاً: أنّ الإحكام له عدّة صور:

أ. يكون في التنزيل؛

ب. يكون في بقاء التنزيل؛

جـ. يكون في تأويل التنزيل؛

د. يكون في معنى التنزيل.

والمقصود من التنزيل: (الآية)، وإليك بيان الصور الأربعة المتقدّمة:

أ) الإحكام إذا كان في التنزيل، فالذي يقابله هو ما يلقيه الشيطان من شبهات حول التنزيل، والشبهة غير المتشابه، كما أنّ ما يلقيه الشيطان بالنسبة إلى النّبيﷺ، إنّما هي محاولة أنْ يلقي في أمنية النّبي، والنّبي مسدّد من الله سبحانه، لذا لا سبيل له على الأنبياء بصريح الآية الكريمة ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ في أمنية النّبي. نعم قد يلقي الشيطان في أمنيات الناس فيشاركهم في أعمالهم وأموالهم وأولادهم، ومع ذلك لا كلّ الناس، لأن لا سبيل له على المؤمنين قال تعالى في خطابه لإبليس: ﴿قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً * وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمْ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾.[1]

إذن ما يلقيه الشيطان ليس من المتشابه في شيء أبداً.

ب) وحينما يكون الإحكام في بقاء التنزيل، ونعني به بقاء الحكم الذي شرّعه الله سبحانه معمولاً به ولم يُغيّر، فهذا البقاء يقابله النسخ، وهو رفع حكم سابق بحكم لاحق، والمتشابه ليس مصداقاً للمنسوخ، كما أنّ الآيات المتشابهة لا نجد فيها حكماً من الأحكام.

١. الإسراء: ٦٣ ـ ٦٥.

ج) وأما الإحكام في تأويل التنزيل ـ سيأتي ضمناً في القسم الرابع ـ فهو المذكور لاحقاً.

د) في معنى التنزيل فهو تمييز الحقيقة المقصودة من غيرها، وهذا التمييز يجعل المعنى خالياً من الشَبَه، بعيداً عن الإلتباس، مقصوداً بعينه دون غيره من المعاني كقوله تعالى: ﴿اللهُ لا اِلهَ إلاّ هُوَ﴾،[١] وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ﴾،[٢] وقوله تعالى:﴿مَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾،[٣] وما جرى مجرى تلك الآيات الكريمة فهي المحكمة ويقابلها بهذا المعنى المتشابهة.

إذن المحكم يقابل المتشابه الذي يشبه هذا ويشبه هذا، ويتعذّر تمييزه وهو الذي نُوكِل تفسيره أو تأويله إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى الراسخين في العلم، وهم أهل بيت العصمة عليهم السلام.[٤]

وهذا القسم هو المعني من موضوع بحثنا وإليه كانت الإشارة في سورة آل عمران.

ومما يردّ قول إبن عباس حديث الإمام الصادق عليه السلام وإليك نصّه:

عن النعماني؛ محمد بن ابراهيم في كتابه تفسير القرآن بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام قال: إنّ الله تبارك وتعالى بعث محمداً صلى الله عليه وآله فختم به الأنبياء، فلا نبي بعده، وأنزل عليه كتاباً فختم به الكتب، فلا كتاب بعده، أحلّ فيه حلالاً، وحرّم حراماً، فحلاله حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فيه شرعكم وخير من قبلكم، وبعدكم.

وجعله[٥] النّبي صلى الله عليه وآله علماً باقياً في أوصيائه عليهم السلام،[٦] فتركهم الناس، وهم الشهداء على أهل كل زمان، وعدلوا عنهم، ثم قتلوهم واتّبعوا غيرهم أخلصوا لهم[٧] الطاعة، حتى عاندوا من

---

١. طه: ٨.

٢. البقرة: ٢.

٣. آل عمران: ١٤٤.

٤. إذا كان للمتشابه تأويل وأنّ أهل البيت عليهم السلام يعلمونه، فهل ينتقل هذا العلم ـ بالمتشابه ـ إلى المحكم..؟ سيأتي التفصيل فيما هو من أشراط الساعة وغيرها إن شاء الله.

٥. ضمير الهاء عائد إلى القرآن.

٦. الأوصياء هم الأئمة الاثنا عشر عليهم السلام، أوّلهم أمير المؤمنين عليه السلام.

٧. الضمير عائد إلى أعداء أهل البيت.

أظهر ولاية ولاة الأمر، وطلب علومهم، قال الله سبحانه: ﴿وَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾.[١]

وذلك أنّهم ضربوا بعض القرآن ببعض، واحتجوا بالمنسوخ، وهم يظنون أنّه الناسخ، واحتجّوا بالمتشابه، وهم يرون أنّه المحكم، واحتجوا بالخاص وهم يقدّرون أنّه العام، واحتجوا بأوّل الآية وتركوا السبب في تأويلها، ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره، إذ لم يأخذوه عن أهله فضلّوا وأضلّوا.

واعلموا رحمكم الله، أنّه من لم يعرف من كتاب الله عز وجل الناسخ من المنسوخ، والخاص من العام، والمحكم من المتشابه، والرخص من العزائم، والمكي والمدني وأسباب التنزيل، والمبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤلّفة و... و... فليس بعالم بالقرآن، ولا هو من أهله، ومتى ما ادّعى معرفة هذه الأقسام مدّع بغير دليل، فهو كاذب مرتاب، مفتر على الله الكذب ورسوله ومأواه جهنّم وبئس المصير.[٢]

أشار الإمام عليه السلام في الفقرة الأخيرة والتي قبلها إلى جملة من العلوم التي لابدّ أن يعرفها المفسّر العالم بالقرآن، حتى يكون من أهله، وإلاّ متى ما ادّعى أحد معرفة هذه الأقسام من غير دليل فهو كاذب مفتر على الله.

أقول: الأقسام التي ذكرها الإمام عليه السلام ـ كما تقدم ـ والتي منها: الناسخ والمنسوخ، الخاص والعام، المحكم والمتشابه، الرخص والعزائم، المكي والمدني... إلخ، كما ترى قد جعل الناسخ والمنسوخ قسماً بنفسه كما أن المحكم والمتشابه جعله قسماً آخر، فلو كان الناسخ هو عين المحكم لما أفرده بالذكر..! وهذا الكلام عينه ينطبق جملة وتفصيلاً على كلام أمير المؤمنين عليه السلام، وأنّ كلام الإمام الصادق عليه السلام، كلّه واحد، لأنّهم من نور واحد، وإليك حديث أمير المؤمنين عليه السلام:

سأل أمير المؤمنين صلوات الله عليه شيعته في معارف القرآن وعلومه فلم يجب أحد. فقال عليه السلام:

---

١. المائدة: ١٣.

٢. رسالة المحكم والمتشابه ضمن تفسير النعماني، المقدمة: ص ٣.

إنّ الله تبارك وتعالى أنزل القرآن على سبعة أقسام كلّ منها شاف كاف، وهي: أمر، وزجر، وترغيب، وترهيب، وجدل، ومثل، وقصص.

وفي القرآن ناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وخاص وعام، ومقدّم ومؤخّر، وعزائم ورخص، وحلال وحرام، وفرائض و أحكام، ومنقطع ومعطوف، ومنقطع وغير معطوف، وحرفٌ مكان حرف... إلخ.

ثم تذكر الرواية، الأقسام الأخرى التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام.

ثم فيها: فكانت الشيعة إذا تفرّغت من تكاليفها تسأله عن قسم قسم فيخبرها، فممّا سألوه: عن الناسخ والمنسوخ وقد فصّل فيه، ثم سألوه صلوات الله عليه عن تفسير المحكم من كتاب الله عز وجل فقال: أمّا المحكم الذي لم ينسخه شيء من القرآن فهو قول الله عزوجلّ: ﴿هُوَ الَّذي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ وإنّما هلك الناس في المتشابه لأنهم لم يقفوا على معناه ولم يعرفوا حقيقته، فوضعوا له تأويلات من عند أنفسهم بآرائهم، واستغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء، ونبذوا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وراء ظهورهم، والمحكم مما ذكرته في الأقسام مما تأويله في تنزيله من تحليل ما أحلّ الله سبحانه في كتابه، وتحريم ما حرّم الله من المآكل والمشارب والمناكح.

ثم يورد عليه السلام بعض الآيات ليستدل بها على المحكم منها قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ﴾[1] إلى أخر الآية، فهذا كلّه محكم لم ينسخه شيء قد استغنى بتنزيله من تأويله، وكلّ ما يجري هذا المجرى.

ثم سألوه عن المتشابه من القرآن فقال: وأمّا المتشابه من القرآن فهو الذي انحرف منه متفّق اللفظ مختلف المعنا، مثل قوله عزّ وجلّ: ﴿يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.[2]

فنسب الضلالة إلى نفسه في هذا الموضع. وهذا ضلالُهم عن طريق الجنّة بفعلهم، ونسبه إلى الكفّار في موضع آخر، ونسبه إلى الأصنام في آية أخرى.

---

١. النساء: ٢٣.

٢. المدثر: ٣١.

ثم يفصّل في أقسام الضلالة، ويأتي بشواهد من القرآن الكريم ويفرّق في معانيها ثمّ يؤكد على الهداية وكيف تحصل للعبد بعد التوفيق والتسديد من الله سبحانه.

ثم يعود ليذكّر الشيعة بما حصل له مع الخوارج فيقول: ولما أردتُ قتل الخوارج بعد أن أرسلت إليهم إبن عباس لإقامة الحجة عليهم، قلت: يا معشر الخوارج! أنشدكم الله ألستم تعلمون أنّ في القرآن ناسخاً ومنسوخاً، ومحكماً ومتشابهاً، وخاصاً وعاماً؟

قالوا: اللّهم نعم.

فقلتُ: اللّهم اشهد عليهم.

ثم قلتُ: أنشدكم الله هل تعلمون ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وخاصّه وعامّه؟

قالوا: أللّهم لا.

قلتُ: أنشدكم الله هل تعلمون أنّي أعلم ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وخاصّه وعامّه؟

قالوا: اللّهم نعم.

فقلتُ: من أضلّ منكم إذ قد أقررتم بذلك.. الخ.

ثم إنّ الشيعة سألوا أمير المؤمنين عليه السلام عن متشابه الخلق، وعن المتشابه في تفسير الفتنة، وعن المتشابه في القضاء، إلى غير ذلك من المواضيع التي اجملها في صدر الحديث.

لقد احتج الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ـ على الخوارج بما عنده من علم[1] ـ بكل تلك الأقسام التي ذكرها فخصمهم وسلّموا له، وهذا يعني أنّ كل تلك الأقسام لها مواضعها من علم الإمام عليه السلام، وكل واحد منها مستقل بنفسه، فلو كان المحكم هو الناسخ، والمتشابه هو المنسوخ فلماذا ذكرهما مستقلّين منفصلين؟ بل كان من المفروض أن يذكر أحدهما دون القسم الآخر!

وعليه، إنّ كل قسم له شأن خاص قائم بنفسه، وإن كانت هناك خصوصيات أخرى قد يشترك

---

١. ما يعزّز النص في كون الإمام أمير المؤمنين عالماً بكل هذه الأقسام ما التمسه له النبي صلى الله عليه وآله حيث دعا له أن يعلّمه فهم القرآن وحفظه، كما علّمه صلى الله عليه وآله ما غمض وخفي من معاني القرآن كالآيات المتشابهة والأسرار الإلهية، وأما المحكمة فهي الآيات التي إليها مردّ المتشابه، وهذا لا يحصل إلا للراسخين في العلم، فهم الذين يعلمون تأويله..

فيهما القسمان؛ أعني الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه وذلك هو أن المنسوخ نؤمن به ولا نعمل به ـ كما هو صريح بعض الروايات وسيأتي ذكرها إن شاء الله ـ والمتشابه كذلك.

فما يوافق ما ذكرناه عدة روايات منها:

رواية العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام: أنّ القرآن محكم ومتشابه: فأما المحكم فنؤمن به **ونعمل به وندين به، وأمّا المتشابه فنؤمن به ولا نعمل به، وهو قول الله عز وجلّ ﴿وأمّا الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله** والراسخون في العلم يقولون آمنّا به كل من عند ربنا﴾ والراسخون في العلم هم آل **محمد** صلى الله عليه وآله[1] انتهى.

وفي تفسير العياشي أيضاً، عن مسعدة بن صدقة قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه قال: الناسخ الثابت المعمول به، والمنسوخ ما قد كان يعمل به ثم جاء ما نسخه، والمتشابه ما اشتبه على جاهله.[2]

قال: وفي رواية الناسخ الثابت، والمنسوخ ما مضى، والمحكم ما يعمل به، والمتشابه ما يشه بعضه بعضاً.[3]

وفي الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام في حديث قال: فالمنسوخات من المتشابهات.[4]

المحصّل من الجمع بين تلك الروايات ـ وغيرها ـ ينتج: أنّ المنسوخ يشارك المتشابه من حيث أنّ الإيمان بكليهما واجب، والعمل بهما غير واجب، أيَ لا يعمل بهما. ويقابلهما: الناسخ والمحكم إذ بينهما مشاركة من وجه، هو أنّ الإيمان بهما وكذا العمل بهما واجب لا محالة.

أما ما ورد في الطبري والدر المنثور وغيرها من المصادر العامة، وفي العيّاشي والكافي وغيرها من طرقنا في كون الناسخ من المحكم، والمنسوخ من المتشابه أو بالعكس كما عن

---

١. تفسير العيّاشي ١: ١٨٦، ح ٤.
٢. المصدر ١: ١١، ح ٧.
٣. المصدر ١: ١٠، ح ١.
٤. الكافي، كتاب الإيمان والكفر ٢: ٢٨.

إبن عباس، إنّما ناظرة تلك الروايات إلى هذا المقدار المشترك بين العِلمين؛ علم الناسخ والمنسوخ وعلم المحكم والمتشابه، فتدبّر والله العالم.

تعقيب آخر

مما يلفت النظر في مجمل الروايات التي اشركت الناسخ بالمحكم، والمنسوخ بالمتشابه، أنّ الأخبار في ذلك على قلّتها في مصادرنا، فهي لا توافق ـ في بعضها ـ المنقول من روايات كتب الجمهور، وذلك كما ورد عن الإمام الباقرعليه السلام: أنّ المنسوخات من المتشابهات.[1]

وفي حديث إبن عباس: أنّ المتشابهات هي الآيات المنسوخة. والمحكمات هي الآيات الناسخة.

إنّك ترى فيما تقدّم من طرقنا ـ كما عن الإمام الباقرعليه السلام ـ أنّ المنسوخ ربّما أريد به بعض المتشابه بدليل ورود (من) التبعيضية في الرواية، وهذا يعني أنّ المتشابهات مصدر للمنسوخات. بينما في رواية إبن عباس بنقل الطبري: أنّ المنسوخات أنزلها منزلة المتشابهات بل جعلها عينها بدلالة الضمير (هي)، وبين النصّين فرق كبير، هذا إذا سلّمنا برواية إبن عباس، ولا نسلّم لأمور منها:

أولاً: ليس فيما بين أيدينا من النصوص القرآنية والأحاديث الشريفة ما يصحّ أن يكون دليلاً يتمسّك به في كون الآيات المتشابهة هي نفسها المنسوخة. فالحصر الذي أشار إليه إبن باس لا وجه له. وقد عرفت من سياق الآية (٧) من آل عمران أنّ إتباع المتشابه هو ابتغاء للفتنة، ولإضلال الناس من خلال التأويل الباطل، وهذا جار في كثير من الآيات غير المنسوخة كآيات إشراط الساعة، ويوم القيامة، ويوم الحساب، وآيات الصفات والأفعال وغير ذلك من الآيات.

ثانياً: فيما يبدو جلياً أنّ مذهب إبن عباس أعمّ مما ينطبق على الناسخ والمنسوخ. وقد ذكرنا ـ فيما تقدم ـ رواية الطبري عن إبن عباس.. المحكمات: ناسخه وحلاله وحرامه

---

١. المصدر.

وحدوده وفرائضه و.. إلخ ومثله في الدر المنثور للسيوطي، بل وفي أغلب التفاسير ورد مثله[1] الحديث الثاني.

ثالثاً: قول إبن عباس مردود أيضاً بقوله تعالى عن المتشابه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلاّ اللهُ وَالرَّاسخُونَ في الْعلْمِ﴾؛ إذ لو كان المراد به هو المنسوخ ما كان للعلم بتأويله أثر، ولا كبير فائدة..

رابعاً: وكذلك ما يردّ قول إبن عباس: إنّ آيات الوعد والوعيد، وآيات الصفات وغيرها هي من آيات الأخبار لا تقبل النسخ، مع أنّها من المتشابه باتفاق المفسرين والعلماء.

آيات محكمة حاول القوم زجها في قسم المنسوخ

هناك آيات عديدة محكمة قد زجّها بعض مفسّري العامة في المنسوخ، وإنّ السر في المقام هو كون تلك الآيات نزلت في أهل البيت عليهم السلام وفيها فضائل مخصوصة لأمير المؤمنين عليه السلام، ممّا لا وسيلة لإنكارها، فما كان منهم إلاّ أن يطلقوا عليها عنوان المنسوخ حتى يغلقوا عليهم باب السؤال والجدل. وأنت جدّ عليم أن الفضائل والمناقب وصفات الأولياء لا تنسخ فافهم.

راجع القسم الثاني تحت عنوان: الآيات المتشابهة فصل تطبيقات.

---

١. راجع رأي إبن عباس في المحكم والمتشابه وقد تقدم.

الفصل الثاني

المحكم والمتشابه في كلمات المفسّرين

مع النحّاس

المتشابه من قول النحّاس؛ أبو جعفر أحمد بن محمد (ت ٣٣٨هـ).

يضع أبو جعفر أمامنا تعريفاً جيداً فيما نحن فيه فيقول: أحسن ما قيل في المحكمات والمتشابهات، إنّ المحكمات: ما كان قائماً بنفسه لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره، نحو ﴿وَلَمْ يكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾،[١] ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾.[٢]

والمتشابهات نحو: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[٣] يرجع فيه إلى قوله جلّ وعلا: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ﴾[٤] وإلى قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.[٥]

يعقّب القرطبي في تفسيره فيقول: ما قاله النحاس يبين ما اختاره إبن عطية [٦] وهو الجاري على وضع اللسان، وذلك أن المحكم اسم مفعول من (أحكم) والإحكام: الإتقان ولا شك في أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردد، إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته

---

١. الإخلاص: ٤.

٢. طه: ٨٢

٣. الزمر: ٥٣.

٤. طه: ٨٢

٥. النساء: ١١٦.

٦. عبد الحق بن غالب بن عطية الغرناطي مفسّر وفقيه، توفي سنة (٥٤٠هـ).

واتقان تركيبها، ومتى اختل أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال.[١]

إلى حدٍ ما قول النحاس في ردّ المتشابهات إلى المحكمات قول صحيح.

أما قول القرطبي فإنّما هو ناظر إلى قول القاضي عبد الجبار(ت ٤١٥ ه) في مخالفته له إذْ أن القرطبي يردّ التشابه، وهكذا الإحكام إلى اللفظ والتركيب دون المعنى المراد، وقد تقدمت عبارته. أما القاضي عبد الجبار فيذهب إلى أنّ الإحكام والتشابه مردّه المعنى المراد.

يقول القاضي في شرح الأصول الخمسة:

﴿المحكم ما أحكم المراد بظاهره، والمتشابه ما لم يحكم المراد بظاهره بل يحتاج في ذلك إلى قرينة﴾.[٢]

ثم يفصّل القاضي في تلك القرينة فيقول: هي إمّا عقلية وإما سمعية.

والقرينة السمعية:

١. إمّا أن تكون في أوّل الآية؛

٢. وإمّا أن تكون في آخرها؛

٣. وإمّا في آية أخرى من السورة؛

٤. وإمّا في آية أخرى من سورة أخرى؛

٥. وإمّا أن تكون القرينة في سنّة الرسولﷺ؛

٦. وإمّا أن تكون في إجماع الأمّة.

أضف إلى ذلك أنّ القاضي لا يترك اللغة دون أن يشير إليها، بل انطلق في كلامه ليبرهن أنّ اللغة شاهدة على صحة مدّعاه، لأن الدلائل السمعية إنما طريقها اللغة وخطاب الناس فيما بينهم، كما أنّ الدلائل العقلية تبدأ من اللغة.

إذن القرطبي يلتقي مع القاضي من جانب ويفترق عنه من جانب آخر كما عرفت.

---

١. الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ٤: ١١.

٢. شرح الأصول الخمسة: ص ٦٠٠..

مع الخازن في تفسيره (إنّ المتشابه هي الحروف المقطّعة في أوائل السور)

ى ذلك علاء الدين علي بن محمد البغدادي الشهير بالخازن في تفسيره (لباب التأويل في معاني التنزيل) في ذيل الآية من آل عمران عن إبن عباس قال:

إنّ رهطاً من اليهود من حيّ بن أخطب وكعب بن الأشرف و نظائرهما أتوا النّبيﷺ فقال له حيّ بلغنا أنك أنزل عليك (ألم) فأنشدك الله أأنزلت عليك؟

قال: نعم.

قال: إن كان ذلك حقاً فإنّي أعلم مدة ملك أمتك، هي إحدى وسبعون سنة.

فهل أنزل عليك غيرها؟

قال: نعم (آلمص).

قال: فهذه أكثر، هي إحدى وستون ومائة.

فهل أنزل عليك غيرها؟

قال: نعم (الر).

قال: هذه أكثر، هي مائتان وإحدى وثلاثون سنة فهل من غيرها؟

قال: نعم (آلمر).

قال: هذا أكثر، هي مائتان وإحدى وسبعون سنة وقد اختلط علينا فلا ندري أبكثيره نأخذ أم بقليله.[1]

وفي تفسير البغوي بهامش تفسير الخازن:

إنّ المتشابهات هي حروف التهجّي في أوائل السور.[2]

وفي صدد مجيء اليهود أو مجيء غيرهم إلى النّبيﷺ يجدر بنا أن نذكر المقطع الآخر من الآية الكريمة حتى نجد الترابط الوثيق بين قوله تعالى ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾.

---

١. تفسير الخازن، علاء الدين علي بن محمد، الشهير بالخازن ١: ٣١٩.

٢. المصدر، ١: ٣٢٠.

أقول: اختلف المفسرون في المراد من كلمة (الذين)، من هم؟ أي: اختلفوا في تشخيصهم، فقيل:

* هم وفد نجران الذين خاصموا الرسولﷺ في عيسى بن مريمعليه السلام.. (عن الربيع).[١]

* وقيل هم اليهود، لأنهم طلبوا معرفة مدة بقاء هذه الأمة واستخراجه بحساب الجمل من الحروف المقطعة في أوائل السور (عن الكلبي).[٢]

* وقيل هم المنافقون. (عن إبن جريح).[٣]

* وقيل هم الخوارج، كان قتادة يقول إن لم يكونوا الحرورية والسبئية فلا أدري مَن هم (عن الحسن)[٤]

* وقيل جميع المبتدعة.

* وعن عائشة، قالت: قرأ رسول اللهﷺ الآية إلى قوله تعالى: ﴿أولوا الألباب﴾ قالت: قال رسول اللهﷺ: فإذا رأيت الذين يتّبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمّى الله، فاحذروهم.[٥]

أقول: وهذا المنقول عن إبن عباس يُعدّ الرأي الثالث له.[٦]

مع إبن رشد الأندلسي في تفسيره (الكشف عن مناهج الأدلة)[٧]

صنّف إبن رشد الناس إلى ثلاثة أقسام:

١ـ العلماء ومن في طبقتهم، وهؤلاء ليس عندهم تشابه.

---

١. تفسير البغوي ١: ٣٢١.
٢. المصدر .
٣. المصدر .
٤. المصدر .
٥. المصدر ، بهامش الخازن ١: ٣٢١.
٦. تقدم الرأي الأول له وهو أنّ (المتشابه هو المنسوخ)، والرأي الثاني له هو أعم. والرأي الثالث هو المائل بين يديك، وهو أن الحروف المقطعة هي المتشابهة.
٧. الكشف عن مناهج الأدلة، إبن رشد الأندلسي: ص ٨٩ ـ ١٠٧.

٢ـ الجمهور، وهم عامة الناس من لم يحظ بالعلم شيئاً، وهؤلاء لا يشعرون بالشكوك العارضة.

٣ـ أرباب المذاهب الكلامية من الأشاعرة والمعتزلة، هؤلاء يوجد في حقهم التشابه وقد ذمّهم الله في ذكره الحكيم فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ﴾.

وقد ضرب سبحانه لتقريب الأمور غير المحسوسة في علو شأنها بأعلى شيء محسوس وهو النور.

فإذا قيل (الله نور) وله حجاب من نور، و إنّ المؤمنين يرونه في الأخرة كالشمس.. لم تعرض للجمهور ولا للعلماء شبهة، والجمهور إذا خوطب أنّ هناك موجوداً ليس بجسم، ولا فيه شيء مما يرونه لازم الجسمية، إرتفع عنهم التخيّل، وخاصة عندما يطلق الشارع أنّ الله لا ـ يحدّه مكان ولا زمان، ولا هو خارج العالم ولا داخل فيه، ولا فوق ولا أسفل، ثم يؤطّر هذا الكلام فيقول (لا تُدركه الأبصار). (ليس كمثله شيء) لهذا قال الرسولﷺ أمرنا أن ننزل الناس منازلهم وأن نخاطبهم على قدر عقولهم.

مع القرطبي، أبي عبدالله محمد بن أحمد وتفسيره (الجامع لأحكام القرآن)[1]

قال القرطبي في المسألة الثانية:

إختلف العلماء في المحكمات والمتشابهات على أقوال عديدة:

* فقال جابر بن عبد الله وهو مقتضى قول الشعبي وسفيان الثوري وغيرهما: المحكمات من أيّ القرآن ما عرف تأويله وفهم معناه وتفسيره.

والمتشابه ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله تعالى بعلمه دون خلقه، قال بعضهم وذلك مثل وقت قيام الساعة، وخروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

قال القرطبي: هذا أحسن ما قيل في المتشابه.

---

١. الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد القرطبي ٤: ٩.

* وقال أبو عثمان: المحكم فاتحة الكتاب التي لا تجزيء الصلاة إلا بها.

* وقال محمد بن الفضل: سورة الإخلاص - أي: هي المحكم - لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط.

* وقد قيل القرآن كلّه محكم لقوله تعالى كتاب أحكمت آياته.

* وقيل كلّه متشابه، لقوله: (كتاباً متشابهاً).

وقد ردّ القرطبي هذه الأقوال الأخيرة ثم قال مجيباً: وليس المراد بقوله (آيات محكمات) ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ هذا المعنى، وإنما المتشابه في هذه الآية من باب الإحتمال والإشتباه من قوله ﴿إنّ البقرَ تشابه علينا﴾ أي: التبس علينا، لكونه يحتمل أنواعاً كثيرة من البقر.

والمراد بالمحكم ما في مقابلة هذا، وهو ما لا التباس فيه ولا يحتمل إلا وجهاً واحداً.

* وقيل إنّ المتشابه ما يحتمل وجوهاً، ثم إذا رُدّت الوجوه إلى وجه واحد وأبطل الباقي صار المتشابه محكماً.

* فالمحكم أبداً أصل تردَ إليه الفروع، والمتشابه هو الفرع.

وقال إبن عباس: المحكمات هو قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى ثلاث آيات، وقوله في بني اسرائيل: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾.

قال إبن عطية وهذا عندي مثال أعطاه في المحكمات ولإبن عباس قول آخر:

المحكمات ناسخه وحرامه وفرائضه وما يؤمن به ويعمل به.

والمتشابهات المنسوخات ومقدّمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يعمل به.

* وقال إبن مسعود وغيره: المحكمات الناسخات، والمتشابهات المنسوخات. وهذا قول قتادة والربيع والضحاك.

* وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكمات هي التي فيها حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعن عليه. والمتشابهات لهنّ تصريف وتحريف وتأويل، إبتلى الله فيهنّ العباد، وقاله مجاهد وابن اسحاق، قال إبن عطية: وهذا أحسن الأقوال في هذه الآية.

قال النحاس: أحسن ما قيل في المحكمات، والمتشابهات أنّ المحكمات ما كان قائماً ...ه لا يحتاج أن يرجع فيه إلى غيره، نحو: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾،[1] ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن ...﴾.[2] والمتشابهات نحو ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[3] يرجع فيه إلى قوله جل وعلا: ﴿...نَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾.[4]

قال القرطبي: ما قاله النحاس يبين ما اختاره إبن عطية وهو الجاري على وضع اللسان.

* وقال إبن خويزمَنداد: للمتشابه وجوه والذي يتعلق به الحكم ما اختلف فيه العلماء أيّ الآيتين نسخت الأخرى؛ كقول علي عليه السلام وابن عباس في الحامل المتوفّى عنها زوجها تعتد ...صى الأجلين. فكان عمر وزيد بن ثابت وابن مسعود وغيرهم يقولون وضع الحمل، ...يقولون سورة النساء القصرى ـ ويريدون بها سورة الطلاق والتي فيها الآية: ﴿أجلهن أن ...ضعن﴾ ـ نسخت أربعة أشهر وعشراً وكان علي عليه السلام وابن عباس يقولان لم تنسخ.

وكاختلافهم في الوصية للوارث، هل نُسخت أم لم تُنسخ. وكتعارض الآيتين أيّهما أولى أن ...قدَم إذا لم يعرف النسخ ولم توجد شرائطه؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ﴾[5] يقتضي الجمع بين الأقارب من ملك اليمين، وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ﴾[6] يمنع ذلك، ومنه أيضاً تعارض الأخبار عن النّبي صلى الله عليه وآله وتعارض الأقيسة فذلك المتشابه.

وليس من المتشابه أن تقرأ الآية بقراءتين ويكون الاسم محتملاً أو مجملاً يحتاج إلى تفسير، لأن الواجب منه قدر ما يتناوله الإسم أو جميعه.. إلخ.[7]

وقال القرطبي في المسألة الخامسة:

---

١. الإخلاص: ٤.
٢. طه: ٨٢.
٣. الزمر: ٥٣.
٤. النساء: ٤٨.
٥. النساء: ٢٤.
٦. النساء: ٢٣.
٧. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤: ١١.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾. الزيغ الميل، وترك القصد ومنه قوله تعالى، ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾[1] وهذه الآية تعم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل وصاحب بدعة، وإن كانت الإشارة بها في ذلك الوقت إلى نصارى نجران. وقال قتادة في تفسير قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: إن لم يكونوا الحرورية وأنواع الخوارج فلا أدري من هم.[2]

وبمثل هذا المعنى ورد في تفسير آية ٧ من آل عمران للحافظ أبي الفداء اسماعيل إبن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ ه).[3]

قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.

قال القرطبي: متّبعو المتشابه لا يخلو أن يتبعوه ويجمعوه طلباً للتشكيك في القرآن، وإضلال العوام، كما فعلته الزنادقة والقرامطة الطاعنون في القرآن، أو طلباً لاعتقاد ظواهر المتشابه، كما فعلته المجسّمة الذين جمعوا ما في الكتاب والسنة مما ظاهره الجسمية حتى اعتقدوا أن البارئ تعالى جسم مجسم وصورة مصوّرة ذات وجه وعين ويد و جنب ورجل واصبع ـ تعالى الله عن ذلك ـ أو يتّبعوه على جهة إبداء تأويلاتها وإيضاح معانيها أو كما فعل صبيغ بن شريك بن المنذر التميمي حين أكثر على عمر بن الخطاب فيه السؤال.[4]

مع إبن تيميّة ومحمد عبده (المحكم والمتشابه)

حاول إبن تيميّةأن يشخّص لنا معنى المتشابه من خلال مفهوم التأويل، قال: إن التأويل في عرف المتأخرين صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معنى مرجوح لدليل يقترن به.

والمتأول عليه وظيفتان:

أ) بيان احتمال اللفظ للمعنى المدعى؛

---

١. الصف: ٥.

٢. تفسير القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٣.

٣. تفسير إبن كثير الدمشقي ٢: ٥٤٣.

٤. الجامع لأحكام القرآن ٤: ١٤، وانظر تفسير الذاريات قصة صبيغ بن شريك وما أعدّ له الخليفة عمر من عراجين النخل حتى أوجع ظهره ضرباً وشج رأسه.

ب) بيان الدليل الموجب لصرف المعنى من الظاهر إلى المدعى.

والتأويل في عرف السلف: إمّا يرادف التفسير والبيان؛

وإمّا نفس المراد بالكلام إن كان طلباً، فتأويله نفس العمل المطلوب.

وقال عن تأويل المتشابه: إنّ الراسخين بالعلم يعلمون تأويله.

ولتوضيح المتشابه يذهب إبن تيمية إلى القول بوجودات أربع؛ وجود الشيء في الأذهان، والوجود في الأعيان، والوجود في اللسان، والوجود في البيان،[1] مثال ذلك معرفة الإنسان لـ الحج، المشاعر، البيت، المسجد، منى، عرفة، مزدلفة،.. عرف ذلك نظراً، أما عملاً ومشاهدة قد لا يعرفها.

ثم قال: ليس في القرآن كلام لا يفهم معناه، و أنّ المتشابه اضافي قد لا يعرفه الضعيف، لكن الراسخ في العلم يعرفه.[2]

وإلى مثل هذا ذهب الإمام محمد عبده وتبعه تلميذه السيد رشيد رضا صاحب المنار.

قال: إنّ الأنبياء بعثوا إلى جميع الأصناف من عامة الناس و خاصتهم سواء كانت بعثتهم لأقوامهم خاصة كالانبياء عليهم السلام السالفين أو لجميع البشر كنبيّنا صلى الله عليه وآله، فاذا كانت الدعوة إلى الدين موجهة إلى العالم و الجاهل و الذكي و البليد و المرأة و الخادم، وكان من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة يفهمها كل أحد، ففيها من المعاني العالية، والحكم الدقيقة ما يفهمه الخاصة ولو بطريق الكناية والتعريض، ويؤمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله والوقوف عند حد المحكم.[3]

و وافق صاحب الميزان إبن تيمية بشمول التأويل لجميع أيَ القرآن المحكم والمتشابه[4] وخطّأه في حصر التأويل في العين الخارجية، لأن العين مصداق وليس بتأويل، بل التأويل حقائق راهنة، فهي مصالح واقعية وأهداف وغايات مقصودة من وراء التكاليف، ثم قال:

---

١. تفسير سورة الاخلاص، إبن تيميّه: ص ٢٨٩

٢. وسيأتي تفصيل آخر متمم لما تقدم.

٣. تفسير المنار ٣: ١٧٠.

٤. الميزان ٣: ٦٣ و ٢٧.

التأويل ليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ، بل هي من الأمور العينية المتعالية، ﴿أي امتنعت﴾ أن يحيط بها شبكات الألفاظ وإنما قيّدها الله بقيد الألفاظ لتقريبها من أذهاننا بعض التقريب فهي كالأمثال تضرب ليقرب بها المقاصد و توضيح بحسب ما يناسب فهم السامع... إلخ.[1]

أقول: ولتقريب المعنى ينبغي أن ندقق في معنى قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾،[2] وقوله تعالى:

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.[3]

لمّا كان (القرآن) في (أم الكتاب) وهو في اللوح المحفوظ.

إذن اللوح، أم الكتاب، العلم المخزون، كل ذلك هو: المحكم وهو الذي لم يطّلع عليه أحد ولا يمسّه إلاّ المطهرون، وليس القرآن من باب الروح الذي ألبس لباس العربية وما أريد بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾ إشارة إلى مقامه الرفيع عند الله.

مع الطوسي في التبيان[4]

المحكم عند الشيخ الطوسي: هو ما علم المراد بظاهره من غير قرينة تقترن إليه ولا دلالة تدلّ على المراد به لوضوحه، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾.[5]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.[6]

ثم قال: لأنه لا يحتاج في معرفة المراد به إلى دليل.

---

١. المصدر ٣: ٤٩.
٢. البروج: ٢١ ـ ٢٢.
٣. الزخرف: ٣ ـ ٤.
٤. تفسير التبيان، أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠هـ) ٢: ٣٩٥.
٥. يونس: ٤٤.
٦. النساء: ٣٩.

والمتشابه: ما لا يعلم المراد بظاهره حتى يقترن به ما يدلّ على المراد منه نحو قوله تعالى:﴿ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾.[١]

فإنه يفارق في الظاهر قوله تعالى: ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾.[٢]

لأن إضلال السامري قبيح وإضلال الله بمعنى حكمه بأن العبد ضالّ، وهذا ليس قبيح بل هو حسن.

واختلف أهل التأويل في المحكم والمتشابه على خمسة أقوال:

الأول: قال إبن عباس: المحكم الناسخ، والمتشابه: المنسوخ.

القول الثاني:قال مجاهد: المحكم ما لا يشتبه معناه، والمتشابه ما اشتبهت معانيه نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾،[٣] ونحو قوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾.[٤]

القول الثالث: قال الجبائي، ومحمد بن جعفر بن الزبير: إن المحكم ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما يحتمل وجهين فصاعداً.

القول الرابع: قال إبن زيد: إن المحكم هو الذي لم يتكرر ألفاظه، والمتشابه هو المتكرر الألفاظ.

القول الخامس: ما روي عن جابر، أن المحكم: ما يعلم تعيين تأويله، والمتشابه ما لا يعلم تأويله نحو قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾.[٥][٦]

لو قيل لِمَ أنزل الله في القرآن المتشابه؟ وهلا أنزله كله محكماً؟

الجواب في عدة أقوال منها:

١ـ للحثّ على النظر الذي يوجب العلم دون الإتكال على الخبر من غير نظر. وذلك أنه لو لم يعلم بالنظر أن جميع ما يأتي به الرسول حق يجوز أن يكون الخبر كذباً، وبطلت دلالة

---

١. الجاثية : ٢٣.

٢. طه : ٨٥

٣. البقرة: ٢٦.

٤. محمد: ١٧.

٥. الأعراف: ١٨٧وسورة النازعات: ٤٢.

٦. أنظر هذه الاقوال في التبيان ٢: ٣٩٥.

السمع وفائدته، فلحاجة العباد إلى ذلك من الوجه الذي تقدم، أنزل الله متشابهاً، ولولا ذلك لَما بان منزلة العلماء وفضلهم على غيرهم، لأنه لو كان كله محكماً لكان من يتكلم باللغة العربية عالماً به، ولا كان يشتبه على أحد المراد به فيتساوى الناس في علم ذلك، على أن المصلحة معتبرة في إنزال القرآن، فما أنزله متشابهاً لأن المصلحة اقتضت ذلك، وما أنزله محكماً فلمثل ذلك.

والمتشابه في القرآن يقع فيما اختلف الناس فيه من أمور الدين: من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.[١]

فاحتمل في اللغة أن يكون كاستواء الجالس على السرير، واحتمل أن يكون بمعنى الاستيلاء.

أمّا الوجه الأول فقطعاً لا يجوز عليه، لأنّه يؤدي ـ الجلوس وما شابه ـ إلى التجسيم وهذا يردّه، قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[٣] إذن المحكم هو ما استدل به على المتشابه أو قل هو رد المتشابه إلى المحكم كقوله تعالى:﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾،[٤] فاحتمل ظاهره تكليف المشاق، واحتمل تكليف ما لا يطاق وأحدهما لا يجوز عليه لقوله تعالى عزّ من قائل: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[٥] وقوله تعالى:﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾.[٦][٧]

---

١. الأعراف: ٥٤؛ يونس: ٣؛ الفرقان: ٥٩؛ ألم السجدة: ٤؛ الحديد: ٤.
٢. الشورى: ١١.
٣. الإخلاص: ٤.
٤. البقرة: ٢٨٦.
٥. البقرة: ٢٨٦.
٦. الطلاق: ٧.
٧. التبيان ٢: ٣٩٦.

تابع آراء العلماء

ومن تناول المحكم والمتشابه إبن عبد المؤمن، المعروف بابن اللبّان الشافعي[1] المتوفّى سنة ٧٤٩هـ وهو من الصوفية وطريقته الشاذلية.

فهو يذهب إلى أن الآيات المتشابه إنما تشمل فقط آيات الصفات، ويفصّل في ذلك بعدما يجعل لله سبحانه صورة حقيقية يأتي بها يوم القيامة، وهذه الصورة هي مظهر تجلّيه لعباده، ويستند إلى الآية الكريمة: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أن يَأْتِيَهُمُ اللّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ﴾.[2]

والحقيقة عنده لهذه الصورة هي (الظُلَة) ثم يفصّل هذه الحقيقة ابتداءً من كلام الله والذي هو صفته، وصفته لا تفارقه، وكلامه الذي صاغه لأنبيائه ورسله انما صاغه حتى يعرضوه على خلقه...، ثمّ يستمر في حديثه إلى أن يصل في كلامه إلى صفة النفس فيستشهد بقوله تعالى بما يحكيه لسان رسولهﷺ: ﴿تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك﴾[3] من

---

١. هو محمد بن احمد بن عبد المؤمن الدمشقي نزيل القاهرة له كتاب (متشابه القرآن و الحديث). أنظر ترجمته في: حسن المحاضرة للسيوطي ١: ٤٢٨؛ الدرر الكافئة لابن حجر ٣: ٤٢٠؛ طبقات الشافعية للسباعي ٩: ٩٤؛ مرآة الجنان شافعي ٤: ٣٣٣؛ الوافي بالوفيات للصفدي ٢: ١٦٨؛ طبقات المفسّرين لابن الداوودي ٢: ٨٠؛ شذرات الذهب ٦: ١٦٣

٢. البقرة: ٢١٠.

٣. المائدة: ٢١٦.

خلال هذه الآية يحاول الربط بين صفة النفس وبين الآيات المحكمات، ولا يخلو إستدلاله من التكلّف، ثم ينتهي إبن اللبّان إلى تعريف المحكمات فيقول: هي الدالة على وحدانيته ووحدانيته يستخلصها من الآية الكريمة ﴿أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[١] وفسّر هذا التوحيد بالاستغفار والتوبة، كما أن الآيات المحكمة كلها ترجع إلى آية واحدة محكمة، وهي ﴿لا إله إلا الله﴾ كيفما كان الحصر الذي أفاده إبن اللبان في كون الآيات المتشابهة لا تتعدى آيات الصفات أمر غير مقبول، بل الآيات المتشابهة تشمل غير هذا أيضاً، كما أن المستفاد من كلامه حمل ظواهر تلك الآيات على حقيقة واحدة، وهي الصورة (تأويلها) وهذا ما اعتقده بعض الأشاعرة مما تكلموا بما لا يليق بجلال الله وكبريائه وعظمته، إذ قالوا بالتشبيه والتجسيم.

وقد بيّن أن جميع الآيات المحكمة تعود إلى آية واحدة، وهي ﴿لا إله إلا الله﴾، وقد علّمها لنبيّه فقال جلّ وعلا ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾.[٢]

أقول: مما يؤخذ على إبن اللبان قوله: (فعلم بذلك أن مظاهر تجلّيه لعباده هي ظلل غمامه)[٣] فمن أين اقتصر معنى التجلّي في ظلل الغمام فحسب؟!

وهل ظلل الغمام وحدها مورد الإنتفاع عند المخلوق؟ أم أن عظمته منحصرة في هذا المظهر؟!

ثم أين هو عن قوله تعالى من سورة الأعراف حيث يقول ـ وعزّ من قائل ـ: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً﴾[٤] ثم قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام لما نودي وهو في البقعة المقدّسة؛ ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِن شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.[٥]

---

١. الإسراء: ٢٣.

٢. محمد: ١٩.

٣. استند إلى قوله تعالى ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام...﴾ البقرة: ٢١٠

٤. الأعراف: ١٤٣.

٥. القصص: ٢٩ ـ ٣٠.

فأين تجلّى الله سبحانه لموسى؟! هل هي ظلل الغمام كما يدّعي إبن اللبان؟

ثم قوله سبحانه من سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.[1]

مع الشريف الرضي

من الآيات التي تناولها السيد الشريف الرضي (رضوان الله تعالى عليه) الآية المذكورة من آل عمران وقد تناولها بشيء من التفصيل، ثم استعان في توضيحها باللغة.

فهو يرى أن المتشابه هو ما غمض ودقّ في معناه، ولم يعلم بظاهره، لذا فهو يحتاج إلى تفسير وتأويل، وهذا بعكس المحكم الذي يعلم بظاهره، فلا حاجة، ولا سبيل إلى تفسيره وتأويله لأن أهل اللسان فيه سواء، ويستدل لهذا البيان باللغة، وما دعاء النّبيﷺ: لابن عباس حيث قال (اللّهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل)، إلا شاهداً بارزاً لذلك.

وقد آثرنا أن ننقل نص كلامه، قال:

... وإذا كان ذلك سائغاً في اللغة وجب حمله على موافقة دلالة الآية في وجوب ردّ المتشابه إلى المحكم، فيعلم الراسخون في العلم تأويله إذا استدلوا بالمحكم على معناه، ولو كان العلماء لا يعلمون شيئاً من تأويل المتشابه بتّة ما كان لما روي ان رسول اللهﷺ علّم أمير المؤمنينعليه السلام التفسير، لأن معنى التفسير والتأويل إنما يكون لما غمض ودقّ ولم يُعلم بظاهره، وهذه صفة المتشابه، وأما المحكم الذي يعلم بظاهره فلا حاجة بأحد إلى تعليمه، لأن أهل اللسان فيه سواء، ولولا أن الأمر على ذلك لما كان لدعاء النّبيﷺ لابن عباس بأن يعلّمه الله التأويل معنى، لأنّا نعلم أنّه لم يُردعليه السلام تعليمه الظاهر الواضح، فلم يبق إلا الغامض الباطن.

و من وجه آخر: أن حقيقة الواو الجمع ، فوجب حملها على سنن حقيقتها و مقتضاها ، و لا يجوز حملها على الابتداء إلا بدلالة ، ولا دلالة ههنا توجب صرفها عن الحقيقه ، فوجب حملها على الجمع، حتّى تقوم الدلالة.[2]

---

١. النمل: ٨ ـ ٩.

٢. حقائق التأويل الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ): ص ١٣٣، مؤسسه البعثة، طهران ١٤٠٦ هـ.

مع الفخر الرازي

قال الرازي: إنّ القرآن مشتمل على دعوة الخواص والعوام جميعاً، أنّ عوام الناس أفهامهم قاصرة في إدراك موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه، وهذا شأن الطفل، لذا ظنوا به العدم فوقع التعطيل. فكان الأصلح أن يخاطبوا بالفاظ دالة على بعض ما يناسب الذي يتوهمونه ويكون ذلك مخلوطاً بما يدلّ على الحق الصريح فيكون من باب المتشابهات، وقسم ثان هو الذي يكشف لهم في آخر الأمر وهي المحكمات.

لكن هذا علاج من وجه، وتبقى هناك آيات لها مساس بموضوع: الخلق، التقدير، القضاء، القدر، الجبر والاختيار، العدل، العصمة،..

إذن كيف عالج الرازي مسألة المحكم والمتشابه؟

يفصّل الفخر الرازي الكلام في تقسيم اللفظ وما يقابله من معنى مفرد أو مشترك فيقول:

اللفظ الذي جعل موضوعاً لمعنى إمّا أن يكون محتملاً لغير ذلك المعنى أو لا يكون.

فإن كان موضوعاً لمعنى ولم يكن محتملاً لغيره فهو (النص)، وإن كان محتملاً لغير ذلك المعنى؛ فإما أن يكون احتماله لأحدهما راجحاً على الآخر وإما أن لا يكون كذلك، بل يكون احتماله لهما على السواء، مثل (القُرء) بالنسبة إلى الحيض والطُهر. فإن كان احتماله لأحدهما راجحاً على الآخر، كان ذلك اللفظ بالنسبة إلى الراجح (ظاهراً) وبالنسبة إلى المرجوح (مؤولاً).

وأما إن كان احتماله لهما على السوية كان اللفظ بالنسبة إليهما معاً (مشتركاً) وبالنسبة لكل واحد منهما على التعيين (مجملاً).

ثم يقول أمّا (النص) و(الظاهر) فيشتركان في حصول الترجيح إلاّ أنّ النص راجح مانع من الغير، والظاهر راجح غير مانع من الغير، فهذا القدر المشترك هو المسمّى بالمحكم).[1]

ثم يذهب الرازي إلى أنّ المجمل والمؤول يشتركان في كون دلالة اللفظ غير راجحة، لكن المجمل لا رجحان فيه بالنسبة إلى كل واحد من طرفيه، كما أنه غير

---

١. التفسير الكبير الفخر الرازي ٣: ١٣٨.

مرجوح، أما بالنسبة إلى المؤول فهو ليس كذلك لأنه مرجوح وهو يشترك مع المجمل في كونه غير راجح.

إذن (المتشابه) عند الرازي ما كان عدم الفهم حاصلاً فيه، بسبب عدم الرجحان لذا يحمل على معناه المرجوح لقيام الدليل العقلي على استحالة المراد بظاهره الراجح، ويقرّر هذا البيان صاحب البحر المحيط في (٢: ٣٨١) فيقول: الكلمة الموضوعة لمعنى لا يحتمل غيره هو نص.

أو يحتمل راجحاً أحد الاحتمالين على الآخر، فبالنسبة إلى الراجح: ظاهر، وإلى المرجوح: مؤول.

أو يحتمل من غير رجحان: فمشترك بالنسبة إليهما، ومجمل بالنسبة إلى كل واحد منهما.

ثم ينتهي إلى كون المتشابه هو المشترك بين المجمل والمؤول، وسببه هو عدم الفهم الحاصل في القسمين.

أما المحكم عند الرازي هو ما حمل على معناه الراجح بحسب وضعه في اللغة والذي لا يحتاج إلى تأويل.

والذي يدقّق في كلام الرازي ومن شايعه في اصطلاحاته الأصولية، يجد البحث قد نحا مسلكاً أصولياً، إذ عبّر عن النص بما كانت دلالته على معناه بدرجة هي القطع دون أن يقبل النص الإحتمال، أما الظاهر فقد عبّر عنه بما كان يقبل الإحتمال، أي: ما دلّ على معنى راجح مع احتمال معنى آخر.

ثم ما يقابل النص والظاهر عندهم هو المجمل[1] والمتشابه،[2] وهما من أقسام المبهم، ولا يخفى أن المتشابه عندهم ما لا يتضح معناه، وقد خالف الرازي بعض المتكلمين إذْ لم يجعلوا المحكم والمتشابه وصفاً لقدر مشترك.

فالاصطلاحات التي تذكر في هذا الباب عند الأصوليين والمتكلمين هي: النص، الظاهر،

---

١. دل على معنيين من دون ترجيح بينهما.

٢. وهو المؤول وما كان دالاً على المعنى بشكل مرجوح، فهو عكس الظاهر.

المحكم، المفسّر بما يقابلها من حيث الخفاء، المشكل، الخفي، المتشابه، والمجمل، ولغرض توضيح المحكم والمتشابه يستدل الرازي بقوله تعالى: ﴿وَإذا أَرَدْنا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنا مُتْرَفيها فَفَسَقُوا فِيها فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾.[١]

فظاهر هذا الكلام أنهم يؤمرون بأن يفسقوا. والأمر ليس كذلك، فقوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ﴾ آية محكمة تلغي ذلك الظهور في الآية المتقدّمة، وهي خير دليل وخير رادع للكفّار الذين افتروا على الله سبحانه، كما في الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.[٢]

وقد ردّهم سبحانه في تتمة الآية الكريمة:

﴿قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّه مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.[٣] وهكذا قوله في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾[٤] وهي آية محكمة جاءت ردّاً على الكفار.

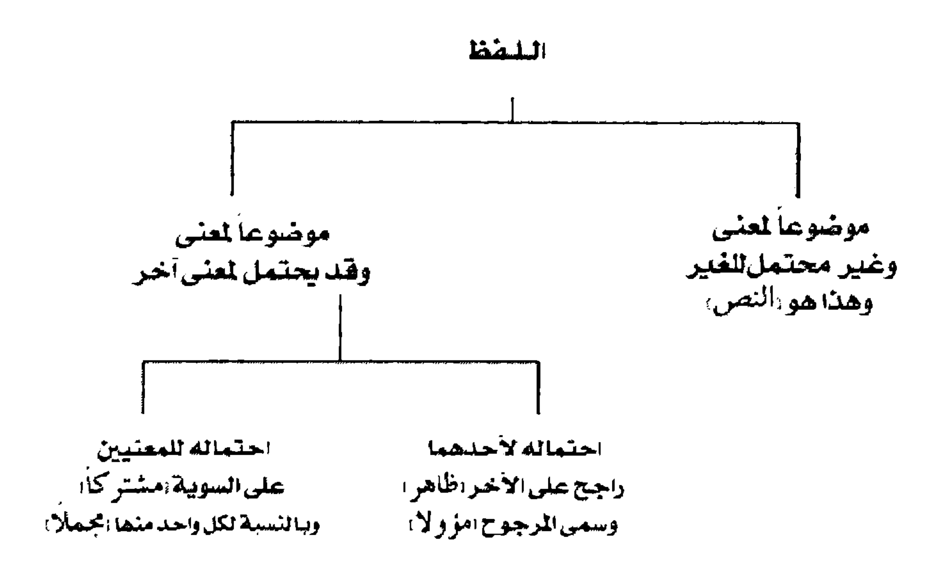
بهذا لابد أن نعرف المحكم والمتشابه من خلال تلك الآيات البينات كما استطعنا أن نستخلص من ذلك رأي الرازي في تفسيره بصريح العبارة.

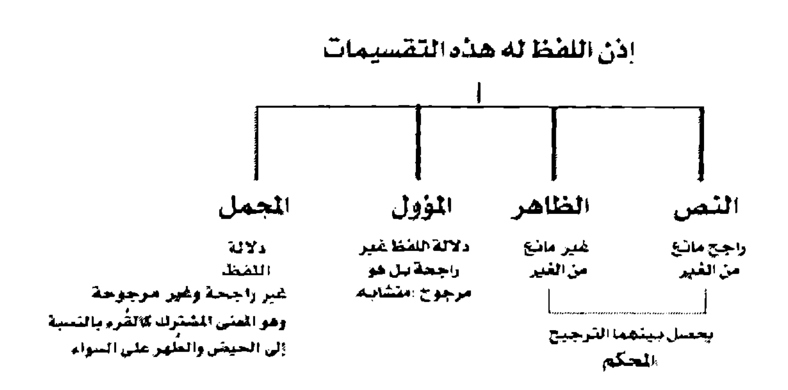
وعليه فإن اللفظ إذا كان محتملاً لمعنيين، وكان بالنسبة إلى أحدهما راجحاً وبالنسبة إلى الآخر مرجوحاً، فإن حملناه على الراجح، ولم نحمله على المرجوح فهذا هو المحكم، وأما إن حملناه على المرجوح ولم نحمله على الراجح فهذا هو المتشابه.[٥]

مخطط يوضح كيف عالج الإمام الفخر الرازي موضوع المحكم والمتشابه من حيث المعنى الذي يؤدّيه اللفظ:

---

١. الإسراء: ١٦.
٢. الأعراف: ٢٨.
٣. الأعراف: ٢٨.
٤. النحل: ٩٠.
٥. مفاتيح الغيب ٣: ١٣٩.





بعد كل هذا، يبقى الكلام في عنوان المشكل والمعنى الباطل، فقال بعضهم:

المشكل بأن يكون اللفظ بأصل وضعه راجحاً في أحد المعنيين، ومرجوحاً في الآخر.

وفي المعنى الباطل ما أشارت إليه الآية:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾[1] فظاهر الآية أنهم

---

١. الإسراء: ١٦.

يؤمرون بأن يفسقوا، وهذا المعنى الباطل لا يمكن الأخذ به لأنّ المحكم هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء﴾[١] وفي هذه الآية ردٌّ على الكفار فيما حكي عنهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.[٢]

وكذلك مما هو مرجوح وبحاجة إلى تأويل قوله تعالى ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ وظاهر السياق ما يكون ضداً للعلم ومرجوحه الترك، والآية المحكمة قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾[٣] وقوله تعالى ﴿لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنسَى﴾.[٤]

أقول: صرف اللفظ من الظاهر (الراجح) إلى (المرجوح) يحتاج إلى دليل منفصل، وهذا الدليل إما لفظياً أو عقلياً، وقد أشار إليهما الفخر الرازي.

ما يخص الدليل اللفظي: إذا حصل التعارض بين الدليلين فنرجح الدليل القاطع على غيره، غير أن الدليل اللفظي غير قطعي، لأن كل دليل لفظي موقوف على نقل اللغات، ونقل وجوه النحو والتصريف، وموقوف على عدم الإشتراك وعدم المجاز، وعدم التخصيص، وعدم الإضمار، وعدم المعارض النقلي والعقلي، وكان ذلك مظنون، والموقوف على المظنون أولى أن يكون مظنوناً، فثبت أن شيئاً من الدلائل اللفظية لا يكون قاطعاً.

ثم لو كان تعارض بين الدليلين ونحن نرجح أحدهما على الآخر فمن أين جاء هذا الترجيح؟ ألقوّة أحد الدليلين؟

فإن أصل الاحتمال قائم فيهما معاً، بل وعلى هذا التقدير في الترجيح يصير صرف الظاهر بالدليل اللفظي عن ظاهره إلى المعنى المرجوح ظنياً. ومثل هذا لا يجوز التعويل عليه في المسائل الأصولية، بل يجوز التعويل عليه في المسائل الفقهية، وعلى هذا ثبت أن صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح في المسائل القطعية لا يجوز إلا عند قيام الدليل

---

١. الأعراف: ٢٨.
٢. الأعراف: ٢٨.
٣. سورة مريم: ٦٤.
٤. سورة طه: ٥٢.

القطعي العقلي، وهذا يؤكد أن لا سبيل إلى صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح إلا بواسطة إقامة الدلالة العقلية القاطعة على أن معناه الراجح محال عقلاً.

مع تفسير أبي الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ)

قال إبن كثير: وقوله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ﴾[١] إختلف القرّاء في الوقف هنا، فقيل: على الجلالة، ونقل قول إبن عباس، أنه قال: التفسير على أربعة أنحاء:

أ) فتفسير لا يعذر أحد فهمه.

ب) وتفسير تعرفه العرب من لغاتها.

ج) وتفسير يعلمه الراسخون في العلم.

د) وتفسير لا يعلمه إلا الله

ومنهم من يقف على قوله: والراسخون في العلم، وتبعهم كثير من المفسرين وأهل الأصول، وقالوا الخطاب بما لا يفهم بعيد، وقد روى إبن أبي نجيح عن مجاهد، عن إبن عباس أنه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله. وقال إبن أبي نجيح، عن مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به، وكذا قال الربيع بن أنس. وقال محمد بن اسحاق عن محمد بن جعفر بن الزبير: وما يعلم تأويله الذي أراد ما أراد إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به، ثم ردوا تأويل المتشابهات على ما عرفوا من تأويل المحكمة التي لا تأويل لاحد فيها إلا تأويل واحد، فأتسق بقولهم الكتاب وصدّق بعضه بعضاً... وفي الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال: (اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل)، ومن العلماء من فصّل في هذا وقال: التأويل يطلق، ويراد به في القرآن معنيان: أحدهما التأويل بمعنى حقيقة الشيء وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾[٢] وقوله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾[١] أي: حقيقة ما

---

١. آل عمران: ٧.

٢. يوسف: ١٠٠.

أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة، لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجليّة إلا الله عز وجل ويكون قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ مبتدأ و﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ خبره.

وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر، فالوقف على ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الإعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ حالاً منهم.

(آمنّا به) أيّ بالمتشابه، (كل من عند ربّنا) أيّ الجميع من المحكم والمتشابه حق وصدق، وكل واحد منهما صدّق الآخر ويشهد له، لأن الجميع من عند الله وليس شيء من عند الله بمختلف ولا متضاد، كقوله: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[٢] أي: إنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها أولوا العقول السليمة والفهوم المستقيمة.. وفي هذا ورد عن النّبيﷺ: (.. إنما انزل كتاب الله ليصدّق بعضه بعضاً فلا تكذّبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا به وما جهلتم فكلوه إلى عالمه...).[٣]

مع إبن تيميّة في المتشابه

تناول إبن تيمية المتشابه في معرض حديثه في سورة الإخلاص فقال: والمقصود هنا أنه لا يجوز أن يكون الله أنزل كلاماً لا معنى له، ولا يجوز أن يكون الرسول وجميع الأمّة لايعلمون معناه، كما يقول ذلك من يقوله من المتأخرين، وهذا القول يجب القطع بأنه خطأ سواء كان مع هذا تأويل القرآن لا يعلمه الراسخون أو كان للتأويل معنيان يعلمون أحدهما ولا يعلمون الآخر، وإذا دار الأمر بين القول بأن الرسول كان لا يعلم معنى المتشابه من

١. الأعراف: ٥٣.
٢. البقرة: ٢٦٩.
٣. تفسير أبي الفداء اسماعيل بن كثير ٢: ٥٤٥.

القرآن، وبين أن يقال الراسخون في العلم يعلمون، كان هذا الإثبات خيراً من ذلك[1] النفي، فان معنا الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يمكن علمه وفهمه وتدبره، وهذا مما يجب القطع به وليس معنا دليل قاطع على أن الراسخين في العلم لا يعلمون تفسير المتشابه، فإن السلف قد قال كثير منهم إنهم يعلمون تأويله، منهم مجاهد[2] مع جلالة قدره، والربيع بن أنس، ومحمد بن جعفر بن الزبير[3] ونقلوا ذلك عن إبن عباس،[4] وأنه قال أنا من الراسخين الذي يعلمون تأويله وقول أحمد[5] فيما كتبه في الردّ على الزنادقة والجهمية، فيما شكّت فيه من متشابه القرآن وتأوّلته على غير تأويله، وقوله عن الجهمية أنها تأولت ثلاث آيات من المتشابه ثم تكلّم على معناها دليل على أن المتشابه عنده تعرف العلماء معناه وأن المذموم تأويله على غير تأويله، فأما تفسيره المطابق لمعناه فهذا محمود ليس بمذموم، وهذا يقتضي أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه عنده وهو التفسير في لغة السلف، ولهذا لم يقل أحمد ولا غيره من السلف إن في القرآن آيات لا يعرف الرسول ولا غيره معناها ... الخ.[6]

ثم يؤيد إبن تيمية كلامه بذكر اسماء جملة من علماء السلف، فيقول: (وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة منهم إبن قتيبة وأبو سليمان الدمشقي وغيرهما.وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد واسحق والمنتصرين لمذاهب السنّة المشهورة).[7]

---

١. هذا الفرض لا يقول به أحد لأن الراسخين في العلم مهما كان رسوخهم وثباتهم وعلمهم فهم لا يفوقون علم الرسولﷺ، لأن الراسخين في علمهم فرع والعلم الذي حواه صاحب الرسالة علمه بتعليم من الله سبحانه اذ كرّمه بالرسالة، وخصّه بالوحي وأنزل عليه جبرئيلﷺ.

٢. قال مجاهد عرضت المصحف على إبن عباس من أوله إلى آخره. أقفه عند كل آية، واسأله عنها وكان يقول أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله (صحيح البخاري).

٣. تفسير إبن كثير ١: ٣٤٧؛ والدر المنثور ٢: ١٥٢.

٤. صحيح البخاري، عن إبن عباس أن النبيﷺ دعا له وقال (اللّهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل) وتفسير إبن كثير ١: ٣٤٧؛ والدر المنثور ٢: ١٥٢.

٥. رسالة أحمد بن حنبل في الرد على الجهمية والزنادقة.

٦. تفسير سورة الاخلاص ـ احمد بن عبد الحليم بن تيمية (ت ٧٢٨ هـ): ص ٢٥٠، ط ٢.

٧. تفسير سورة الاخلاص، إبن تيمية: ص ٢٥٠.

ويذهب في استدلاله من حيث نقض كلام الخصوم الذي يعتقد أن الرسوخ يراد به الإيمان، فيقول لو كان كما تقولون للزم ذكر المؤمنين ولما خصّ الراسخين.. ونصّ عبارته:

(قالوا ولأنه لو كان المراد مجرد الوصف بالإيمان لم يخصّ الراسخين، بل قال والمؤمنون يقولون آمنا به فإن كلّ مؤمن يجب عليه أن يؤمن به، فلما خصّ الراسخين في العلم بالذكر، علم أنهم امتازوا بعلم تأويله، فعلموه لأنهم عالمون، وآمنوا به لأنهم يؤمنون، وكان إيمانهم به مع العلم أكمل في الوصف، وقد قال ـ عز وجل ـ عقب ذلك: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[1] وهذا يدلّ على أن هنا تذكر يختص به أولوا الألباب، فإن كان ما ثم إلاّ إيمان بالألفاظ فلا يذكر لما يدلّهم على ما أريد بالمتشابه.[2] ونظير هذا قوله في الآية الأخرى: ﴿لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾[3] فلما وصفهم بالرسوخ في العلم وأنهم يؤمنون قرن بهم المؤمنين. فلو أريد هنا مجرد الإيمان لقال والراسخون في العلم والمؤمنون يقولون آمنا به كما قال في تلك الآية لما كان مراده مجرد الاختبار بالإيمان جمع بين الطائفتين).[4]

ومن الأدلة التي يمكن الالتفات إليها هو: إن جملة من الآيات تناولت أخبار الأمم وقصصهم وقصص الأنبياء، بل وهناك آيات الأحكام، وهناك آيات فيها أمر ونهي ووعد ووعيد، وهناك آيات تناولت الأسماء والصفات.

كل ذلك قد خاض فيه العلماء من السلف ـ وعلى رأس هؤلاء العلماء والصحابة هم أهل البيت عليهم السلام ـ فبيّنوا للأمة معاني تلك الآيات، كما بيّنوا ما غمض منها وما خفي معانيها بل وذكروا الآراء التي قيلت في تأويلها، وهذا دليل على أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل..

قال إبن تيمية: فالنقول متواترة عن إبن عباس (رضي الله عنهما) أنه تكلّم في جميع معاني القرآن من الأمر والخبر، فله من الكلام في الأسماء والصفات والوعد والوعيد

---

١. البقرة: ٢٦٩.

٢. العبارة فيها تشويش وغموض وربما أريد بها.. والمعنى أنه لو لم يكن هناك إلاّ إيمان باللفظ لم يتحقق التذكر.

٣. النساء: ١٦٢.

٤. تفسير سورة الاخلاص، إبن تيمية: ص ٢٥٤.

والقصص، ومن الكلام في الأمر والنهي والأحكام ما يبين أنه كان يتكلم في جميع معاني القرآن، وأيضاً فإنهم متفقون على أن آيات الأحكام يعلم تأويلها، وهي خمسمائة آية، وسائر القرآن خبر عن الله وأسمائه وصفاته، أو عن اليوم الآخر والجنة والنار، أو عن القصص وعاقبة أهل الإيمان وعاقبة أهل الكفر، فإن كان هذا هو المتشابه الذي لا يعلم معناه إلا الله فجمهور القرآن لا يعرف أحد معناه، لا الرسولﷺ ولا أحد من الأمّة، ومعلوم أن هذا مكابرة ظاهرة، وأيضاً فمعلوم أن العلم بتأويل الرؤيا أصعب من العلم بتأويل الكلام الذي يخبر به، فإن دلالة الرؤيا على تأويلها دلالة خفية غامضة لا يهتدي لها جمهور الناس، بخلاف دلالة لفظ الكلام على معناه، فإذا كان الله قد علّم عباده تأويل الأحاديث التي يرونها في المنام فلئن يعلمهم تأويل الكلام العربي المبين الذي ينزله على أنبيائه بطريق الأولى والأحرى، قال يعقوب ليوسفعليه السلام ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[1] وقال يوسفعليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ﴾[2] وقال: ﴿قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا﴾[3].[4]

مع محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي المالكي (ت١٣٩٣هـ) في تفسيره (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)

تطّرق الشنقيطي إلى المحكم من خلال كلمة التأويل الواردة في قوله تعالى: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾ فقال: إعلم أنّ التأويل يطلق ثلاثة إطلاقات:

الأول: أنّه الحقيقة التي يؤول إليها الأمر، وهذا هو معناه في القرآن.

الثاني: يراد به التفسير والبيان ومنه بهذا المعنى قولهﷺ في إبن عباس: (اللّهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل)...

---

١. يوسف: ٦.

٢. يوسف: ١٠١.

٣. يوسف: ٢٧.

٤. تفسير سورة الاخلاس، إبن تيميّة: ص ٢٦٤.

الثالث: هو معناه المتعارف في اصطلاح الأصوليين، وهو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه إلى محتمل مرجوح بدليل يدلّ على ذلك.[١]

تنقيح المناط عند الأصوليين

إنّه لا يخلو الأمر من حالة واحدة من ثلاث حالات:

الحالة الأولى: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره بدليل صحيح في نفس الأمر يدلّ على ذلك، وهذا هو التأويل المسمّى عندهم بالتأويل الصحيح.

الحالة الثانية: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره لأمر يظنّه الصارف دليلاً وليس بدليل في نفس الأمر، وهذا هو المسمى عندهم بالتأويل الفاسد، والتأويل البعيد، ومثّل له الشافعية والمالكية والحنابلة بحمل أبي حنيفة المرأة في قوله ﷺ (أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فنكاحها باطل، باطل، على المكاتبة والصغيرة.

الحالة الثالثة: أن يكون صرف اللفظ عن ظاهره لا لدليل أصلاً.

أقول: والعجيب من الشنقيطي عندما مثّل لهذا القسم الثالث بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً﴾[٢] وادّعى أن بعض الشيعة عنت بالبقرة عائشة، أنه افتراء محض، ما أراد به إلاّ القدح والفتنة.

ثم أشار إلى الواو في (والراسخون..) فإنها محتملة للاستئناف، فيكون المتشابه لا يعلمه إلا الله أيّ لا يعلم تأويله. والوقف على هذا تام على لفظة الجلالة، وكذا الواو محتملة لأن تكون عاطفة...، وعليه فالمتشابه يعلم تأويله الراسخون في العلم. ثم رجّح الاحتمال الأول ـ الاستئناف ـ وقد استدل ببعض الآيات، غير أن استدلاله غير تام حيث ورد في القرآن ما يردّ زعمه وذلك قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِه أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾.[٣]

---

١. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار المالكي ١: ١٦٩، ط دار إحياء التراث العربي بيروت ١٩٩٦م؛ و طبعة عالم الكتب ١: ٢٦٧.

٢. البقرة: ٦٧.

٣. الجن: ٢٦ ـ ٢٧.

ومن ادّعى الواو عاطفة لأن الله مدح أهل الرسوخ في العلم فكيف يمدحهم وهم جهّال؟

وهذا ما يوافق قول القرطبي بل يوافق قول النّبيﷺ لابن عباس: (اللّهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل).

وكذا يوافق قول إبن عباس عندما قال نحن الراسخون في العلم.

أقول: وذكر الشنقيطي تنبيهين في إعراب (يقولون) فراجع (١: ١٧١)، من طبعة دار احياء التراث العربي و(ص ٢٧٢) من طبعة عالم الكتاب.

مع عبد الرحمن الثعالبي المالكي (ت ٨٧٥ هـ) في تفسيره (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)

قال المحكم: المتضح المعنى لكل من يفهم كلام العرب، لا يحتاج فيه إلى النظر، ولا يتعلق به شيء يلبِّس، ويستوي في علمه الراسخ وغيره.

والمتشابه على نوعين:

منه: ما لا يُعلم البتّة؛ كأمر الروح، وآماد المغيبات التي قد أعلم الله بوقوعها.

ومنه: ما يحمل على وجوه في اللغة من هذا النوع كثيراً، بحسب ما قُدِّر له، فمن قال: إن الراسخين يعلمون تأويل المتشابه فمراده النوع الثاني. ومن قال إن الراسخين لا يعلمون تأويله فمراده النوع الأول كأمر الروح، ووقت الساعة.[١]

الأقوال المذكورة في المحكم والمتشابه

أولاً: أن المحكمات هو قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ...﴾ إلى آخر الآيات الثلاث من سورة الأنعام (١٥١ ـ ١٥٣). وقوله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ...﴾ إلى آخر ثلاث آيات.

والمتشابهات هي التي تشابهت على اليهود، وهي الحروف المقطعة النازلة في أوائل

---

١. الجواهر الحسان، عبد الرحمن الثعالبي ٢: ١٢.
أنظر: المصدر ١: ٢٣٤.

بعض السور، هذا هو القول المأثور عن إبن عباس.

ذكره الرازي في تفسيره (٧: ١٧٠)، وفي الدر المنثور روايات عديدة عن إبن عباس في الآيات الثلاثة.

ثانياً: أن المتشابه هو ما يسمىً مجملاً والمحكم هو المبين.

ثالثاً: أنّ المتشابهات هي الآيات المنسوخة لأنها يؤمن بها لكونها قرآن ولا يعمل بها لكونها منسوخة، والمحكمات هي الآيات الناسخة لأنها يؤمن بها ويعمل بها.

نسب ذلك إلى إبن عباس وابن مسعود وقتادة والسُدّي.[١]

رابعاً: أنّ المحكمات ما كان دليله واضحاً لائحاً كدلائل الوحدانية والقدرة والحكمة كما هو المروي عن الأصم.

والمتشابهات ما يحتاج في معرفته إلى تأمّل وتدبّر، ولا يعرف العوام تفصيل الحق فيه من الباطل.[٢]

خامساً: أنّ المحكم كلّ ما أمكن تحصيل العلم به بدليل جلي أو خفي.

والمتشابه ما لا سبيل إلى العلم به كوقت قيام الساعة وما شابه.[٣]

سادساً: أنّ المحكمات آيات الأحكام، والمتشابهات غيرها مما يعرف بعضها بعضاً، وهذا القول نسب إلى مجاهد.[٤]

سابعاً: أنّ المحكم من الآيات ما لا يحتمل من التأويل إلا وجهاً واحداً، والمتشابه ما احتمل من التأويل أوجهاً كثيرة. وهذا القول نُسب إلى أبي علي الجبائي، كما في متشابه القرآن لابن شهر آشوب، وقد نسب إلى الشافعي كما في تفسير الخازن، بل ورأيته منسوباً إلى محمد بن جعفر بن الزبير كما في تفسير البغوي.

---

١. تفسير الرازي ٧: ١٧٠.

٢. المصدر.

٣. المصدر.

٤. تفسير الطبري، والمنار ٣: ١٦٤؛ والدر المنثور ٢: ١٤٥.

أما إبن جرير الطبري فقد رواه عن محمد بن جعفر بن الزبير وستأتي عبارته.[١]

ثامناً: أن المحكم ما أحكم وفصّل فيه خبر الأنبياء مع أممهم، والمتشابه ما أشتبهت ألفاظه في قصصهم بالتكرير في سور متعددة.[٢]

تاسعاً: أنّ المحكم ما استقل بنفسه ولم يحتج إلى البيان، والمتشابه ما احتاج إلى بيان، هذا القول نسب إلى أحمد بن حنبل.[٣]

عاشراً: أنّ المحكم ما يؤمن به ويعمل به والمتشابه ما يؤمن به ولا يعمل به. وهذا منسوب إلى إبن تيمية. بل وقد وجدته منسوباً إلى إبن عباس كما في تفسير البغوي وهذا ينطبق على القول الثالث.[٤]

الحادي عشر: أنّ المتشابهات هي آيات الصفات ـ ما يعمّ صفات الله وصفات أنبيائه ـ كالعليم والقدير والكبير والخبير وأمثالها بالنسبة إلى صفات الله.

وأما بالنسبة إلى الأنبياء كقوله تعالى في عيسى: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾.[٥]

الثاني عشر: أنّ المحكم ما للعقل إليه سبيل، والمتشابه بخلافه[٦] وهذا منسوب إلى إبن تيمية أيضاً.

الثالث عشر:أنّ المحكم ما أريد به ظاهره،والمتشابه ما أريد بن خلاف ظاهره، وربما جعلوا التأويل مستنداً إلى المعنى المخالف لظاهر الكلام والمحكم ما لا يحتاج إلى ذلك.

الرابع عشر: أنّ المحكم ما أجمع على تأويله والمتشابه ما أختلف فيه. عن الأصم.

الخامس عشر: أنّ المتشابه ما أشكل تفسيره لمشابهته غيره سواء كان الإشكال من جهة اللفظ أو من جهة المعنى.[٧]

---

١. تفسير المنار ٣: ١٦٤.
٢. المصدر ٣: ١٦٥.
٣. المصدر.
٤. المصدر.
٥. النساء: ٧١.
٦. تفسير المنار ٣: ١٦٥.
٧. عن الراغب، أنظر تفصيله في المفردات.

السادس عشر: عكس الرأي الأول وهو أنّ المحكمات هي الحروف المقطّعة في فواتح السور، والمتشابهات غيرها.

نقل ذلك عن أبي فاخته في معرض حديثه عن قوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[١] أنهن فواتح السور منها يستخرج القرآن: ﴿الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ منها استخرجت البقرة، و﴿ألم * اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ منها استخرجت آل عمران. وشبيه هذا القول عن سعيد بن جبير أيضاً.

السابع عشر: أنّ المحكمات ما أطلع الله عباده على معناه، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه فلا سبيل لأحد إلى معرفته، نحو الخبر عن اشتراط الساعة مثل الدجال ويأجوج ومأجوج ونزول عيسى عليه السلام وطلوع الشمس من مغربها وفناء الدنيا وقيام الساعة.. ذكره الخازن في تفسيره.

الثامن عشر: أنّ المحكم ما لم تتكرر ألفاظه، والمتشابه ما تكررت ألفاظه.[٢]

التاسع عشر: أنّ المحكم هو الأمر والنهي والوعد والوعيد. والمتشابه هو القصص والأمثال.[٣]

العشرون: أنّ المحكم ما يستقل بنفسه في المعنى، والمتشابه ما لا يستقل بنفسه إلاّ برده إلى غيره.[٤]

وهو كالقول الثاني عشر.

الحادي والعشرون: المحكم من الآيات ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[٥] أيّ أصل الكتاب، لأنهن مكتوبات في جميع الكتب، أخرجه السيوطي عن إبن أبي حاتم عن سعيد إبن جبير.[٦]

الثاني والعشرون: (المحكمات) هن الآمرة الزاجرة، أخرجه السيوطي عن إبن أبي حاتم عن الربيع.[٧]

---

١. آل عمران: ٧.
٢. تفسير الخازن: آل عمران: ٧.
٣. المصدر.
٤. تفسير البغوي ١: ٣٢٠.
٥. آل عمران: ٧.
٦. الدر المنثور ٢: ١٤٥.
٧. المصدر.

الثالث والعشرون: (المحكمات): حجة الرب، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه (وأُخر متشابهات) في الصدق لهن تصريف وتحريف وتأويل، إبتلى الله فيهن العباد كما إبتلاهم في الحلال والحرام، لا يصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق.

أخرجه السيوطي وابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير[١] الذي يبدو إلى الناظر أن عبارة إبن جرير المتقدّمة قد جعلت المحكم بمعنى النص عند الأصوليين والمتشابه ما يقابله.

الرابع والعشرون: المتشابهات آيات في القرآن يتشابهن على الناس إذا قرؤوهنّ، ومن أجل ذلك يضل من ضلّ، فكل فرقة يقرؤون آية من القرآن يزعمون أنها لهم، فمنها يتبع الحرورية من المتشابه قول الله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾،[٢] ثم يقرؤون معها: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾،[٣] فإذا رأوا الإمام يحكم بغير الحق قالوا: قد كفر فمن كفر عدل بربه، ومن عدل بربه فقد أشرك بربه. فهؤلاء الأئمة مشركون، أخرجه السيوطي وابن المنذر عن سعيد بن جبير.[٤]

الخامس والعشرون:وقيل عن المتشابه ما لا ينتظم لفظه مع معناه إلا بزيادة أو حذف أو نقل. ذكره المازندراني في متشابه القرآن، ثم قال: وسمّي متشابهاً لأنه يشبه المحكم، وقيل لاشتباه المراد منه بما ليس بمراد، والمتشابه في القرآن إنما يقع فيما اختلف الناس فيه من أمور الدين نحو قوله: ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[٥] ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾،[٦] ومنها أن يحتمل معنيين أو ثلاثاً أو أكثر فيحمل على الأصوب مثل: ﴿يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ﴾[٧] وقوله: ﴿تجْرِي

---

١. المصدر ٢: ١٤٦؛ وتفسير إبن كثير ١: ٣٤٥.
٢. المائدة: ٤٤.
٣. الأنعام: ١.
٤. الدر المنثور ٢: ١٤٦.
٥. الجاثية: ٢٣.
٦. طه: ٨٥.
٧. المائدة: ٦٤.

بأَعْيُنِنَا﴾[١] ومنها ما يزعم فيه من مناقضة نحو: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[٢] وقوله: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾[٣] وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[٤] ومنها ما هو محكم فيه غرضه مثل قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[٥] وما يتبع ذلك من الغوامض التي تحتاج إلى بيانها ويستخلص منها إما بموضوع اللغة أو بمقتضى العقل أو لموجب الشرع.[٦]

السادس والعشرون: أنّ المحكم هو السديد النظم والترتيب، الذي يفضي إلى المعنى المستقيم من غير مناف، ويشمل النص والظاهر الذي خلا تركيبها من الحذف وغيره. والمتشابه هو الذي لا يحيط العلم بالمعنى المطلوب منه، من حيث اللغة، إلا أن تقترن به أمارة أو قرينة ويندرج تحته المشترك.

وهذا الوجه منسوب إلى الجويني إمام الحرمين.[٧]

---

١. القمر: ١٤.
٢. فصلت: ١٢.
٣. فصلت: ١٠.
٤. الأعراف: ٥٤.
٥. الشورى: ١١.
٦. متشابه القرآن ومختلفة: ص٢.
٧. دراسات في التفسير د. مصطفى زيد: ص ٥٦.

الفصل الثالث

الجانب التفسيري للآية الكريمة
السابعة من سورة آل عمران
هو الذي أنزل عليك الكتاب

تمهيد

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾.[1]

ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت ضمن (٨٠) آية في نصارى نجران إذ وفدوا على رسول الله ﷺ وكانوا ستين راكباً، فذكروا عقائدهم، واحتجّوا على التثليث وألوهية المسيح عليه السلام بكونه خُلق على غير السُنّة التي عرفت في توالد البشر وبما جرى على يديه من الآيات، وبالقرآن نفسه، فأنزل الله الآيات من أول سورة آل عمران إلى نحو ثمانين آية.

فالآية الثانية من السورة ﴿اللّهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[2] تقرير لحقيقة التوحيد، وهي نقطة الانطلاق لجميع المعارف، وأهم أساس في تفكير الإنسان، وأعظم قاعدة من قواعد الدين.

والآية الثالثة من السورة ـ خطاب للرسول ﷺ الذي أنزل عليه القرآن ـ فيها تصريح أنّه نزل من عند الله تعالى بالحق، و أنّ كل ما فيه من العقائد والأخبار والأحكام هو حق وعدل، وربما قيل أن الصدق في الأخبار أو الحجج هي دالة على كونه من عند الله، وهذا القرآن مبيّناً صدق ما تقدّمه من الكتب في كونها نازلة من عند الله سبحانه، المنزلة على الأنبياء، أيّ كونها وحياً منه تعالى، ثم أعقب قوله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾.[3]

---

١. آل عمران: ٧.

٢. البقرة: ٢٥٥.

٣. آل عمران: ٣.

التوراة كلمة عبرانية معناها المراد الشريعة أو الناموس، وهي تطلق عند أهل الكتاب على خمسة أسفار يقولون أن موسى عليه السلام كتبها وهي:

١ـ سفر التكوين، وفيه كلام عن بدء الخليقة وأخبار بعض الأنبياء؛

٢ـ سفر الخروج؛

٣ـ سفر اللاويين أو الأخبار؛

٤ـ سفر العدد؛

٥ـ سفر التثنية (تثنية الإشتراع).

ويطلق النصارى لفظ التوراة على جميع الكتب التي يسمّونها العهد العتيق وهي كتب الأنبياء، وتاريخ قضاء بني إسرائيل وملوكهم قبل المسيح عليه السلام، ومنها ما لا يعرفون كاتبه وقد يطلقونه عليها وعلى العهد الجديد معاً بالإنجيل.

ولفظ الإنجيل يوناني الأصل ومعناه البشارة. وقيل التعليم الجديد، وهو يطلق عند النصارى على أربعة كتب تعرف بالأناجيل الأربعة، وعلى ما يسمّونه العهد الجديد وهو هذه الكتب الأربعة مع كتاب أعمال الرسل (أي الحواريين) ورسائل بولس وبطرس ويوحنا ويعقوب ورؤيا يوحنا، والأناجيل الأربعة عبارة عن كتب صغيرة في سيرة المسيح عليه السلام وشيء من تاريخه وتعاليمه، وهي معلومات وجيزة لذا سمّيت أناجيل، وليس لهذه الكتب سند متّصل عند أهلها، وهم مختلفون في تاريخ كتابتها على أقوال كثيرة، أبرزها تسعة أقوال وفي كل قول منها أقوال أيضاً، لذا كثرة الإختلاف تخرج الأمر عن حقيقته، ويبقى موضوع تدوين الإنجيل ـ وعلى زعم النصارى أنفسهم ـ أنه كتب بعد فترة المسيح عليه السلام، كما في بعض تلك الأقوال أنه كتب في النصف الثاني من القرن الأول للمسيح، علماً أنّ بعضهم ادعى أنّ الانجيل من تصنيف يوحنا.

وعليه، إنّ الانجيل في عرف القرآن هو ما أوحاه الله سبحانه إلى رسوله عيسى إبن مريم عليهما السلام من البشارة بالنّبي الذي تمّم الشريعة والحكم والأحكام، وهو ما يدلّ عليه اللفظ، لكن النصارى نسوا حظاً مما ذكّروا به كاليهود، انظر قوله تعالى:﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم * لقد كفر الذين قالوا إنّ الله هو المسيح إبن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح إبن مريم وأمّه ومن في الأرض جميعاً ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كلّ شيء قدير﴾.[1]

ولا يخفى أنّ التوراة لمّا فُقدت لم تكن مدوّنة، ثمّ دوّنت ولكن ليس بشكل صحيح، بل جمعها عزرا الكاهن وذلك بعد سبي بابل، لأنّ بختنصر لما خرّب الهيكل فلم يبق لليهود شيء من توراتهم، بل فُقدَ مع التابوت، وإنّ عزرا الكاهن هو الذي كتب لليهود الشريعة بأمر (أرتحشتا) ملك فارس الذي أذن لليهود ـ بني اسرائيل ـ بالعودة إلى أورشليم.

فالمستفاد من ذلك أنّ جميع أسفار التوراة التي عند أهل الكتاب قد كتبت بعد السبي، كما كتب غيرها من أسفار العهد العتيق، ويدلّ على ذلك كثرة الألفاظ البابليّة فيها، وبمثل هذا قل عن أناجيل النصارى، فلم تعرف ولم تشتهر إلا في القرن الرابع للميلاد، لأن أتباع المسيح عليه السلام كانوا مضطهدين بين اليهود والرومان، فلمّا آمنوا باعتناق الملك قسطنطين النصرانية ظهرت كتبهم ومنها تواريخ المسيح عليه السلام المشتملة على بعض كلامه الذي هو انجيله، ولما كثرت النسخ للانجيل وهكذا اختلفت النصوص فيها بل تعدّدت أسماء الجامعين لها مما اضطرهم أن يتفقوا على أربعة من تلك المجاميع.

إذا عرفنا هذا المقدار عن حقيقة التوراة عند اليهود والأناجيل التي هي منتشرة بين النصارى، سوف يتّضح جليّاً من خلال الآيات الستة الأولى من سورة آل عمران أنّ الله سبحانه بدأ بها في التأكيد على فكرة التوحيد لينفي عقيدة اليهود وعقيدة النصارى، فاليهود قالت عزيز إبن الله، والنصارى قالت المسيح إبن الله، ثم قالت بالتثليث، وهذا النفي وتنزيهه سبحانه عن كل ما يصح نسبته للآدميين جاء في قوله تعالى: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾،[2] وقوله تعالى: ﴿اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.[3]

---

١. المائدة: ١٥ـ١٧.

٢. البقرة:الآية ٢٥٥.

٣. الإخلاص: ٢.

فالله سبحانه أنزل التوراة على موسى عليه السلام، كما أنزل الإنجيل على عيسى عليه السلام فلم يكن موسى عليه السلام هو المنزل للكتب على الأنبياء من بني إسرائيل، وإنما موسى عليه السلام هو نبي كمن سبقه.

والله سبحانه هو الذي أنزل الفرقان لبيان أنه سبحانه هو الذي وهب العقل للبشر ليفرقوا به بين الحق والباطل، وعيسى عليه السلام أحد هؤلاء البشر، فلم يكن إلا نبي كسائر الأنبياء، فلم يكن واهباً للعقول.

وفي الآيات تعريض بأن السائلين تجاوزوا حدود العقل لمّا نسبوا المسيح عليه السلام إلى الله، فقالوا ببنوّته، وقد ردّهم الله سبحانه، ثم إنّ ما أنزله من الكتب والفرقان يدلّ على إثبات الوحدانية لله تعالى، وتنزيهه عن الولد والحلول، أو الإتحاد بأحد أو بشيء من الحوادث.

أما قوله سبحانه ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ﴾[1] ردّ لشبهتهم في ولادة عيسى عليه السلام من غير أب، أي: أن الولادة من غير أب ليست دليلاً على الألوهية، فالمخلوق عبد كيفما خلق، وإنما الإله هو الخالق الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء، وعيسى عليه السلام لم يصوّر أحداً في رحم أمه.

ثم هذه الآية فيها من التعريض ما لا يخفى بأن عيسى عليه السلام تكوّن وصوّر في الرحم كغيره من الناس.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾.[2]

استعمل (أنزل) وهي صفة للكل وليس للبعض، ولو أراد وصف بعض الآيات لاستعمل كلمة تنزيل التي تناسب نزول الآيات نجوماً أيّ بعضه بعد بعض.

ثم هذا الكتاب: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.[3]

في الكتاب العزيز نوعان من الآيات: محكمات وأُخر متشابهات.

أما المحكمات فهي الأصل لأنها أم الكتاب، والمحكم من الإحكام والإتقان، والحكمة منها بمعنى المعرفة التامة والعلم الجازم النافع، وعليه فالآيات المحكمة هي الاصل الثابت

---

١. آل عمران: ٦.

٢. آل عمران: ٧.

٣. آل عمران: ٧.

وهي المآل، وبمعنى آخر هي الأصول التي ترجع إليها الفروع أو المتشابه من الآيات، وقد تسأل ما الفرق بين قوله تعالى في سورة هود: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وقوله تعالى في سورة آل عمران والتي نحن بصددها: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

المراد بالإحكام من سورة هود هو حال من حالات الكتاب كان عليها قبل النزول، وتلك الحالة كونه واحداً لم يطرأ عليه التجزّي والتبعيض، وهو بعد في اللوح المحفوظ، وهو بعد لم ينزل إلى سماء الدنيا، فهذا الإحكام وصف لتمام الكتاب، بخلاف المورد في سورة آل عمران إذ أن الإحكام والإتقان الذي لبعض آياته بالنسبة إلى بعض آخر وهو وصف لهذا البعض دون غيره من جهة امتناع تلك الآيات المحكمة عن التشابه في المراد.

ثم لو سألت عن المتشابه في سورة آل عمران وما جاء في سورة الزمر آية ٢٣ حيث يقول جلّ وعلا: ﴿كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ فما الفرق بينهما.

أقول: لقد اتضح لك أنّ الآيات على قسمين كما دلت عليه الآية ٧ من سورة آل عمران؛ قسم محكم وهو جُل القرآن والتي اصطلحنا عليها الأصول، وقد سمّاها القرآن الكريم أُمّ الكتاب، وقسم متشابه، وهي من القلّة بحيث عبّر عنها القرآن الكريم بـ(أُخر) وهي فروع أو قل عنها غير بيّنة المعنى، والتشابه أيّ توافق أشياء مختلفة واتحادها في بعض الأوصاف والكيفيات بحيث لا يتعيّن المراد بسهولة، ومنه التشابه في الآيات. فبعض الآيات لا يتعيّن مرادها بمجرد استماعها، بل يتردّد معناها بين معنيين أو أكثر، وأن فهم السامع يستطيع أن يُعيّن مراد الآية المتشابه إذا ما رجع إلى الآيات المحكمات، فهي كفيلة بتوضيح المعنى و تعيين المراد وتبيانه، فتصير الآية المتشابهة عند ذاك آية محكمة بواسطة غيرها من الآيات المحكمات.

أما الآية الواردة في سورة الزمر فكلمة (متشابها) هي وصف لجميع القرآن. هذا أوّلاً.

وثانياً: المراد بهذا الوصف كون آيات الكتاب ذات نسق واحد من حيث جزالة النظم واتقان الأسلوب، وبيان الحقائق والحكم، والهداية إلى صريح الحق، كما تدلّ عليه القيود المأخوذة في الآية من القشعريرة والخشية.

ثالثاً: سياق الآية هنا يختلف عن سياق الآية من سورة آل عمران والتي أشارت إلى: ﴿الَّذينَ في قُلُوبهمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ منْهُ ابْتغَاءَ الْفتْنَة وَابْتغَاءَ تَأْويله﴾.

رابعاً: اتحاد الوصف في الكل هنا ـ سورة الزمر ـ كاتحاده في سورة هود: ﴿أُحْكمَتْ آيَاتُهُ﴾ أيَ أنَ الكتاب كلَ آياته متقنة من لدن عزيز حكيم، كما أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى في قوله جل وعلا: ﴿ذَلكَ الْكتَابُ لاَ رَيْبَ فيه﴾[1] وقوله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكتَابَ بالْحَقِّ مُصَدِّقاً لّمَا بَيْنَ يَدَيْه﴾[2] وقوله تعالى: ﴿تلْكَ آيَاتُ الْكتَاب الْمُبين﴾،[3] وقوله تعالى: ﴿كتَابٌ أنزَلْنَاهُ إلَيْكَ لتُخْرجَ النَّاسَ منَ الظُّلُمَات إلَى النُّور﴾،[4] وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للَّه الَّذي أنزَلَ عَلَى عَبْده الْكتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عوَجَا﴾،[5] وقوله تعالى: ﴿تلْكَ آيَاتُ الْقُرْآن وَكتَاب مُّبين هُدًى وبُشْرَى للْمُؤْمنينَ﴾،[6] وآيات كثيرة في ذلك تنبؤك أنَ القرآن كلّه واحد متقن، وهو الحق الذي يصدق بعضه البعض الآخر، و أنّه من الله سبحانه وتعالى لا يدخله الشك ولا الريب.

وأما في سورة آل عمران فالكل سوف يكون محكماً وذلك عندما نرجع الآيات المتشابه ـ والتي لا يتعيّن معناها بمجرد الاستماع إليها ـ إلى الآيات المحكمة التي هنَ أُمّ الكتاب، فالوصف هنا قسمان أحدهما يخصّ طائفة كبيرة من الآيات، ووصف آخر يشمل طائفة قليلة منها، وهذه الطائفة القليلة إذا عرضناها على الطائفة الأولى والتمسنا معناها من تلك الآيات المحكمة أصبحت كل الآيات على هذا البيان محكمة أيضاً.

وإذا لم نقل بهذا البيان سوف يبطل العلاج الذي دلّت عليه الآية الكريمة: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكتَاب﴾[7] هذا أولاً.

---

١. البقرة: ١.

٢. آل عمران: ٣.

٣. يوسف: ١.

٤. إبراهيم: ١.

٥. الكهف: ١.

٦. النمل: ١ ـ ٢.

٧. آل عمران: ٧.

وثانياً: سوف يبطل قوله: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.[١]

وثالثاً: سوف لا يتم قوله: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾.[٢]

ورابعاً: سوف لا يتمّ كونه: ﴿قيماً لاعوجَ فيه﴾.

وخامساً: سوف لا يتمّ كونه: ﴿نوراً وَهُدىً﴾.

وسادساً: سوف لا يتمّ كونه: ﴿كتابٌ مُبينٌ﴾.

وسابعاً: سوف لا يتمّ كونه: ﴿لاَ رَيْبَ فيه﴾ وإلى غير ذلك من الموارد.

وثامناً: سوف لا يتمّ كونه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنْ الْقُرْآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.[٣]

وتاسعاً: سوف يبطل قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلاً مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾.[٤]

بعد هذه النظرة السريعة:

لقد أخبر الله سبحانه في تلك الآيات وفي غيرها ـ كثير ـ بأنّ القرآن بيان فصّلت آياته، وهو عربي لا عوج فيه، وهو نور وهدى، وهو المبين لا ريب فيه، وهو شفاء ورحمة وموعظة، ولم يستثن منه شيئاً، كل هذه الأوصاف لا تتحقّق بدون فهم معناه.

أقول: إنّ كلّ آية لا بدّ وأن يكون لها دلالة على مدلول ما، وربما فيها أكثر من مدلول واحد.

وهذه المداليل بعضها مستقل وواضح يفهمه العارف بالكلام العربي وقواعد اللغة، وهناك آيات بعض مداليلها ملتبس بالبعض الآخر، لكن لا تخلو عن مراد ما يمكن الوصول إليه بدلالة آية أخرى.

ثم إنّ المعارف القرآنية لا تخرج عن الأصول المسلمة والتي منها:

وجود الخالق المبدع والمصوّر للأشياء، الواحد، وهذا ما يخص جانب التوحيد.

ثم جانب اللطف المتمثّل بساحته في بعثه للأنبياء والرسل لهداية البشر، وهو أصل مسلّم فيه،

---

١. السجدة: ٤.

٢. محمد: ٢٤.

٣. الإسراء: ٨٢.

٤. نور: ٣٤.

يتبعه تشريع الأحكام والسنن والتكاليف العبادية، ثم ما يترتب على ذلك من الجزاء والعقاب والذي مآله في يوم القيامة والمعاد إلى الله سبحانه، ثم كونه سبحانه الحكيم العادل، فهو لا يظلم أحداً ولا يبخس عمل العاملين هذا وغيره كله من الأصول المسلمة في القرآن الكريم.

إذن هناك قسمان من الآيات، القسم الأوّل:آيات صريحة، تعيَّن المراد الحق من بين تلك المداليل المتعددة، فهي أصول يرجع إليها.

القسم الثاني: آيات قد لا يتعيَّن منها المراد مباشرة، بل لابدّ من الاستعانة بتلك الآيات الصريحة لتعيِّن المراد، وهذا يعني أن القرآن بعضه يبيّن بعضاً، وبعضه يقيّد بعضاً.

إذا عرفنا هذا المقدار من صفات الآيات، نأتي إلى صفات الناس ومقدار مداركهم العقلية.

أقول: إنّ المعارف التي يلقيها الله سبحانه في كتابه العزيز على نمطين: منها معارف عالية خارجة عن حكم الحس والمادة والإفهام العادية، قد لا تصل إليها بمجرد النظرة الأولى والإستماع الأول. لذا سوف تتردّد الإفهام البسيطة فلا تشخّص المراد، بل يلتبس عليها المعاني كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1] فيتبادر منها إلى الذهن الذي إنطبع في تصوير الأشياء المحسوسة[2] فيجعلها منطبقة على تلك الرؤية ـ في يوم القيامة ـ إلى الرب، هذا التبادر في تلك الأذهان يزول بالرجوع إلى الأصول التي تشتمل على نفي الجسمية، بل نفي المادة عن المورد وهو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.[3]

وقوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾.[4]

وهذا يعني أنّ النظرة والرؤية في هذه الآية غير ماديّة، بل هي من سنخ آخر دون الرؤية البصرية الحسية.

ويمكن أن تكون هذه الرؤية هي الرؤية القلبية، أو قل عنها اليقين كقوله تعالى: ﴿مَا

---

١. القيامة: ٢٣.

٢. الأشياء المحسوسة هي من أوصاف الأجسام وخواصّها.

٣. الشورى: ١١.

٤. الأنعام: ١٠٣.

كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأى﴾،[١] فهل للفؤاد رؤية حسيّة أو مادية؟!

الجواب: كلا.

والنمط الثاني من الآيات التي شملت جملة من المعارف هي ما يتعلق بالتشريعات الخاصة ونواميس الحياة والسنن، وما فيها من تنظيم لشؤون الفرد والمجتمع، وهو الذي يدرك بالنظر الأول وتفهمه العقول السليمة دون تردد، وهذا النمط نجد فيه ـ وفقاً لمقتضيات المصلحة ـ العام والخاص والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ وأمثال ذلك من الأقسام.

فكما لا يعمل بالمنسوخ هنا لا يعمل بالمتشابه هناك ـ في النمط الأول ـ

وكما لا يعمل بالعام هنا، لأن ما من عامٍ إلاّ وخصّ، فكذلك هناك ـ في النمط الأول من المعارف ـ لا يعمل بالمتشابه بل لابدّ من تأويله أو إرجاعه إلى المحكم، وكما لا يعمل بالمطلق هنا فكذلك لا يعمل بالمتشابه هناك.

وعليه لـمّا كان لابدّ من إرجاع العام إلى الخاص، والمطلق إلى المقيد، والمنسوخ إلى الناسخ فكان لزاماً من إرجاع المتشابه وهو الفرع إلى المحكم، لأنه هو الأصل كما قالت الآية: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.[٢]

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾.[٣]

أشارت الآية الكريمة إلى صنفين من الناس، الصنف الأول كما في هذا المقطع من الآية. هم الناس المنحرفون عن الحق المائلون عن الهدى، الحائدون عن الصراط والإستقامة، المتصدّون للفتنة، ووسيلتهم في ذلك إتباع ما تشابه من الآيات دون المحكم الواضح الصريح المتقن منها، وإتباعهم ذلك، أي: العمل به لا لكونهم مؤمنين إيماناً حقاً على سبيل نجاة، وإنّما عملهم فيها على سبيل اضلال الناس، وطلباً للفتنة، فيعمدون إلى قلب الحقيقة بإتّباع

---

١. النجم: ١١.

٢. آل عمران: ٧.

٣. آل عمران: ٧.

القسم الذي معناه مردّد غير مبيّن، وأنّه غير مستقل بمعنى ما لم يُسند إلى المحكم؛ وهو كما ترى إتباع مذموم لمن يرتضيه الله سبحانه.[١]

وكون هذا الصنف من الناس يتّبع المتشابه إبتغاء التأويل فهو لا يريد أن يقف عند الآيات فيأخذ معالم دينه منها، بل يريد أن يوهم على الناس في الحلال والحرام فيضلّهم عن الصراط والحق، فإذا زهّدهم عن المحكم من الآيات وصرفهم عن إتّباعها حصل غرضه ـ وهو الميل عن الحق ـ وعطّلت أحكام الله سبحانه وانتسخ الدين من أساسه.

والتأويل في هذه الآية لها عدة معان، ولو رجعنا إلى اللغة لظهر لنا أنّ التأويل هو المرجع والمصير، تقول آل الأمر إلى كذا إذا رجع إليه، وتسمّى العاقبة تأويلاً لأن الأمر.. يصير إليه.

فتأويل المتشابه هو المرجع الذي يرجع إليه، بمعنى آخر لا يمكن العمل بظاهر المتشابه، بل لابدّ من تأويله، وهذا التأويل إذا طابق المحكم يؤخذ به، وفي النتيجة لا بدّ من رجوع المتشابه إلى المحكم.

والتأويل في مصطلح الأصوليين هو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدليل.

ثم لفظ التأويل قد وردت في آيات كثيرة، وقصص متعددة من القرآن الكريم بلغت (١٧) مورداً.

منها في قصة يوسف عليه السلام، ومنها في قصة موسى مع الخضر عليه السلام كما في سورة الكهف،

---

١. وفي هذا الصدد لابن تيمية قول آثرنا أن نذكره:

قالوا: وأمّا الذم فإنّما وقع على من يتبع المتشابه لابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وهو حال أهل القصد الفاسد الذين يريدون القدح في القرآن فلا يطلبون إلا المتشابه لإفساد القلوب وهي فتنتها به، ويطلبون تأويله وليس طلبهم لتأويله لأجل العلم والاهتداء، بل لأجل الفتنة... تفسير المنار ٣: ١٧٧.

وفي موضع آخر، قال:... فهذا الذي أنكره السلف والأئمة من التأويل، فجاء بعدهم قوم انتسبوا إلى السنّة بغير خبرة تامة بها وبما يخالفها، وظنوا أنّ المتشابه لا يعلم معناه إلا الله، فظنوا أنّ معنى التأويل هو معناه في اصطلاح المتأخرين، وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى المرجوح، فصاروا في موضع يقولون وينصرون أن المتشابه لا يعلم معناه إلا الله ثم يتناقضون في ذلك من وجوه (أحدها) أنهم يقولون النصوص تجري على ظواهرها ولا يزيدون على المعنى الظاهر منها، ولهذا يبطلون كل تأويل يخالف الظاهر، ويقررون المعنى الظاهر ويقولون مع هذا إن له تأويلاً لا يعلمه إلا الله، والتأويل عندهم ما يناقض الظاهر.. المنار ٣: ١٨٨.

ومنها فيما يخصّ حال المفترين على الله الكذب كما في سورة الأعراف، آية ٥٣ ويونس، آية ٣٩.

ففي سورة يوسف عليه السلام قال تعالى على لسان نبيّه: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾.[1]

فماذا كان رؤياه عليه السلام؟

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.[2]

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾.[3]

فرجوع يوسف عليه السلام ما رآه من الرؤيا إلى سجود أبويه وإخوته له من قبيل رجوع المثال إلى الممثل، وقد ربط يوسف عليه السلام بين الرؤيا المنامية والرؤيا الصادقة المتحققة في الخارج، فقال: ﴿هذا تأويل رؤياي من قبل﴾.

وكذا قوله تعالى في قصة عزيز مصر: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ * يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ إلى آخر الآيات.

فقد استعمل التأويل في الموردين فيما يرجع إليه الرؤيا من الحوادث الخارجية وهي القحط والشح في الغلاّت والزرع.

وبمثل ذلك قصة الفتيين الذين دخلا السجن مع يوسف عليه السلام وما رأياه في المنام قال

١. يوسف: ١٠٠.
٢. يوسف: ٤.
٣. يوسف: ١٠٠.

تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَان قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِه إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾.[١]

فماذا كان تعبير يوسف عليه السلام لهما؟

قال تعالى على لسان نبيه: ﴿قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِه إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِه﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَي السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِه قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيه تَسْتَفْتِيَان﴾.[٢]

فقد استعمل التأويل في الموردين أيضاً فيما يرجع إليه الرؤيا من الحوادث الصادقة في الخارج، فما كان يراه النائم في منامه من رؤيا يراه حقيقة فيما بعد صورة خارجية في عالم اليقظة.

ومن نِعَمِ الله سبحانه على نبيّه يوسف عليه السلام أنْ علّمه تفسير تلك الرؤى الصادقة التي رآها هو والفتيان، والملك؛ عزيز مصر، فتطابق الحوادث الخارجية على تلك الرُؤى، بل تفسير تلك الرؤى بتلك الحوادث التي ستقع هو التأويل، لأننا أرجعنا الوقائع ـ وهي المتأخرة زماناً ـ إلى الرؤى المتقدّمة، وهذا يعني أن نسبة التأويل إلى ذي التأويل نسبة المعنى إلى صورته التي يظهر بها، والحقيقة المتمثلة إلى مثالها الذي تتمثل به.

فإذا اتضح هذا المعنى فلا كثير عناء من معرفة قوله تعالى: ﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيث﴾.[٣]

فالأحاديث ما صدق على المنامات، وتعليم الله سبحانه نبيّه التأويل أيَ إخباره بما سيقع من حوادث تطابق تلك المنامات ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيث﴾،[٤] وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيث﴾.[٥]

فالتأويل هنا هو المرجع الذي يرجع إليه الشيء بنحو خاص كما تقدّم في أحداث سورة

---

١. يوسف: ٣٦.
٢. يوسف: ٣٧ ـ ٤١.
٣. يوسف: ٢١.
٤. يوسف: ٦.
٥. يوسف: ١٠١.

يوسف عليه السلام، ومثلها ما حصل بين موسى عليه السلام والخضر عليه السلام، فالذي فعله الخضر عليه السلام إنما فعله لحكمة خاصة لكن قد ظهرت له صورة أخرى عند موسى عليه السلام مخالفة مما حمله على السؤال وكانت هي موارد ثلاث:

المورد الأول: في خرق السفينة فقال تعالى: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً﴾.[1]

والثاني: في قتل النفس قوله تعالى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾.[2]

والثالث: في إقامة الجدار قوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾.[3]

وتفصيل تلك الأعمال التي قام بها الخضر عليه السلام هي كما في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾.[4]

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاماً فَقَتَلَهُ﴾.[5]

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾.[6]

ما تلقاه موسى عليه السلام من صور وعناوين غير التي كانت عند الخضر عليه السلام لذا أقدم على الإعتراض في الموارد الثلاث.

لتوضيح هذا التفاوت بين الصورتين قال الله تعالى على لسان الخضر عليه السلام: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾،[7] وهو قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً * وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً * فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ

١. الكهف: ٧١.
٢. الكهف: ٧٤.
٣. الكهف: ٧٧.
٤. الكهف: ٧١.
٥. الكهف: ٧٤.
٦. الكهف: ٧٧.
٧. الكهف: ٧٨.

رُحْماً * وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾.[١]

فهل عرفت معنى التأويل في هذه المشاهد الثلاث؟

إنّها لا تختلف عما تقدّم من معنى في إحداث سورة يوسف عليه السلام وما رآه يوسف في المنام، وهكذا بالنسبة إلى الملك وما رآه في شأن البقرات، وهكذا الفتيان ومنامهما، فكلمة تأويل في جميع هذه الموارد أريد بها رجوع الشيء إلى صورته وعنوانه، والله العالم.

١. الكهف: ٨٢

الفصل الرابع

مع العلامة الطباطبائي رحمه الله

مع العلامة الطباطبائي رحمه الله

قال السيد رحمه الله :إن سبب وقوع التشابه في القرآن يعود إلى خضوع القرآن ـ في إلقاء معارفه العالية ـ لألفاظ وأساليب دارجة، هي لم تكن موضوعة لسوى معانٍ محسوسة أو قريبة منها، ومن ثم لم تكن لتفي بتمام المقصود، فوقع التشابه فيها وخفي وجه المطلوب.

نعم القرآن في قبال فهم الناس يتدرج فهمه حسب استعدادات البشر، لذا المتشابهات تزول بتعميق النظر وإجادة التفكير والتدبّر فيبقى القرآن كله محكم.

كلمة محكم تعود إلى مادّة (حكم) وهو الشيء الذي حكم أصله وَمَنعَ منعاً، بحيث لا يمكن نفوذ شيء إليه حتى يفصله و(إحكام) و(تحكيم) و(حكم) بمعنى القضاء. و(الحكمة) بمعنى المعرفة.

و(الحَكَمَة) لجام الدابة، سُميت اللجامُ حَكَمة الدابة وكل هذه المعاني تقضي إلى الإتقان وتدل عليه.

و(المتشابه): هو ما كان بين الأشياء المختلفة من توافق في الأوصاف والكيفيّات.

و(التأويل) هو إرجاعُ شيءٍ إلى شيءٍ آخر.[1]

ثم قال: إن كون كل الكتاب محكماً هو صفة للقرآن قبل نزوله.

---

١. الميزان، مقالات تأسيسيّة في الفكر الإسلامي، محمّد حسين الطباطبائي: ص ٣١٧.

أما كونه جميعاً (متشابهاً) فالمقصود به أنّ جميع آياته تنتظم في سياق واحد وتخضع لنظام جذّاب وأسلوب يتسم بالإحكام، بحيث يعبّر عن الحقائق بشكل منسجم يهدي الناس إلى الحقّ ويرشدهم إليه.

وفيما يتعلق بـ(أم الكتاب) فيمكن أن نستخلص المراد من خلال الإعتماد على الدلالة الأصلية لمعنى (أم) التي تؤول إلى أن تكون المرجع والملجأ التي يُلجأ إليه.

وحينئذٍ تكون الآيات المحكمات التي هي أم الكتاب المرجع الذي يُلجأ إليه في فهم الآيات المتشابهات.

والذي نستفيده من سياق الآية أن المتشابه من آيات الذكر الحكيم لا تستبين معانيه ولا تتضح بمجرد الاستماع إليه، وإنما تكون باعثاً للوهلة الأولى على الشكّ والتردّد فينقاد إليه مَنْ في قلوبهم مرض ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله.

وحين يتردّد المقصود بالمتشابه بين هذا المعنى وذاك لا يكون أمامنا سبيل لاستبيان معناه المحدود إلا بإرجاعه إلى الآيات المحكمات التي تفصل فيه.[١]

مما تقدم يتضح فساد قول البعض عندما قال: «إن معنى التأويل هو إصابة المعنى المخالف لظاهر اللفظ».

ووجه الفساد من عدّة وجوه:

الأول: أن كلمة تأويل التي وردت في (١٦) موضعاً من القرآن الكريم لم تشر إلى ذلك المعنى المذكور.

الثاني: ما أورده المفسرون في معانٍ لتلك الموارد لا تكشف عن الوجه الصحيح إلا في بعضها.

الثالث: إتصاف القرآن جميعه بالمحكم سوف يتعارض مع ذلك المعنى المؤوّل الذي قيل عنه المخالف لظاهر اللفظ، وقد عرفنا أن ظواهر القرآن حجّة.

الرابع: عندما يختلف ذلك الظاهر مع محكمات القرآن سوف يؤدّي ذلك الإختلاف إلى

---

١. المصدر: ص ٣١٩.

الفتنة، وفسح المجال للتفسير وفق مشارب الناس وذوي الأهواء، وهو التفسير بالرأي، وقد جاء الذّم به من الشارع المقدس.

الخامس: قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾.[2]

تؤكّد الآيتان ـ لفهم القرآن ـ على التدبر، وإلا لأصبح الإختلاف المزعوم عامل هدم وباعث ضلال، وهذا ما يسعى إليه الملاحدة وأهل الزيغ والباطل، إذاً ذلك الإختلاف مردود بصريح القرآن المجيد.

السادس: على أن مدارك الإنسان تتفاوت نتيجة للتفاوت في القابليّات والاستعدادات، إلا أن القرآن لا يحجب الإنسان عن التفكير، وبالتالي القرآن قابل للفهم والإدراك طالما الفطرة المودعة عند الأفراد إذا استمرت بشكل صالح ونقّي لأصبح مستوى الإدراك العام عند الجميع يفهم ولو بنسبة معقولة، وترتفع هذه النسبة في مقامها بارتفاع القابليّات والمؤهّلات.

السابع: أن التأويل في الواقع لا يختصّ بالآيات المتشابهة، بل يشمل المحكمات من القرآن والمتشابهات، وهذا يعني أن التأويل عبارة عن حقيقة خارجية لها واقع مخصوص، وهذه الحقيقة قد أُلبست ثوب الألفاظ، وبمعنى آخر أن المثل الذي يضرب لتقريب معنىً من المعاني، هو في الواقع ليس نفس الشيء المضروب له ذلك المثل، لأن النسبة بين المثل والممثل له كنسبة الشيء وظلّه، فالأصل القرآن كلام الله سبحانه، وهذا الكلام حقيقة خارجية وصفه سبحانه بكلمة عنده (عَلِيٌّ حكيم) وإن كان وصفه للناس أنه قرآن عربي، فكونه عربي لغرض أن يفهمه الناس، فهو كتاب هداية، أمّا هل تصل العقول إلى ذلك الفهم ـ حقيقة خارجية ـ الذي هو عند الله؟ فهذا ما يعرف بالتأويل لأنه يحكي عن معنى القرآن بما فيه تأويل المحكم والمتشابه.

وقال العلامة الطباطبائي رحمه الله:

---

١. محمد: ٢٤.

٢. النساء: ٨٢.

(إنّ كون الآية ذات تأويل ترجع إليه غير كونها متشابهة ترجع إلى آية محكمة أولاً.

وثانياً: أنّ التأويل لا يختص بالآيات المتشابهة بل لجميع القرآن تأويل، فللآية المحكمة تأويل كما أنّ للمتشابهة تأويل.

وثالثاً: أنّ التأويل ليس من المفاهيم التي هي مداليل للألفاظ، بل هو من الأمور الخارجية العينية، واتصاف الآيات بكونها ذات تأويل من قبيل الوصف بحال المتعلق، وأما إطلاق التأويل وإرادة المعنى المخالف لظاهر اللفظ، فاستعمال مولّد نشأ بعد نزول القرآن لا دليل أصلاً على كونه هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ﴾.[1]

أقول: هذا أهم ما جاء في تفسير *الميزان* في معنى التأويل وإنه يشمل المحكم والمتشابه لكن ما ذهب إليه السيد الطباطبائي في عبارته (وأما إطلاق التأويل و إرادة المعنى المخالف لظاهر اللفظ استعمال مولّد نشأ بعد نزول القرآن...) أمر غير صحيح وفي غاية التهافت.

لأن الذين يتّبعون ما تشابه لديهم غاية وهدف وذلك ما أشار إليه سبحانه في الآية فقال جلّ وعلا يصفهم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾[2] وهؤلاء شأنهم في المتشابه: ﴿ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ﴾ أى: أنهم يتعلّقون بظاهره كما يفتنوا الناس عن دينهم بالتشكيك والتلبيس ومناقضة المحكم بالمتشابه. ومن هدف المبتدعة: ﴿وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ﴾ أى: أن المبتدعة وما شاكلهم يأوّلونه على المتشابه ما يشتهونه أو أنهم يتعلقون بتأويل باطل وهو خلاف الحق ولا يخفى أن ذاك التلبيس وذاك التأويل هو تلبيس على ضعفاء الخلق وإفساد الدين على الناس.

ثم هناك معانٍ أخر للفتنة منها ما مرّ كما عن *مجاهد والبعض* قيل لطلب الشرف والمال كما سمّى الله سبحانه المال فتنة.

وقيل المراد بالفتنة ها هنا الكفر، وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام والربيع والسدّي. كما أنّ (ابتغاء التأويل) طلب تأويله على خلاف الحقّ، وقيل ابتغاء عاقبته كما في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾.[3]

---

١. الميزان ٣: ٢٧؛ و الآية ٧ من سورة آل عمران.

٢. الزيغ: الميل؛ والتزايغ: التمايل في الأسنان.

٣. النساء: ٥٩.

وقوله تعالى: ﴿وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾.[١]

ومما يستدل به على أن هؤلاء المبتدعة الذين يتّبعون ما تشابه ويأوّلون الآيات كما تشتهيه أنفسهم قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾.[٢]

مع أن سبحانه قد وصف كتابه العزيز بالتفصيل والهدى والرحمة: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.[٣]

ولما كان أولئك لا يذعنون للحقّ، ويطلبون الفتنة، ويأوّلون الآيات بالباطل ردعهم الله سبحانه، فقال ـ وعز من قائل ـ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.[٤]

فالمقطع الأخير من الآية الكريمة: ﴿قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ صريح في أنّ التأويل وطلب المعنى المخالف لظاهر اللفظ لم يكن استعمالاً مولّداً نشأ بعد نزول القرآن، بل أنه كان ملازماً لنزول القرآن، لهذا خسر هذا الفريق من الناس، وسبب خسارتهم لأنهم افتروا على الله سبحانه الكذب بتأويلهم تلك الآيات المتشابهة من عند أنفسهم.

وقد استفاد من تلك الآيات المتشابهة زمن النزول عدّة من الناس وعلى رأسهم المنافقون.

والنفاق مصطلح أطلقه القرآن الكريم على فئة من الناس؛ شأنهم إظهار الإيمان وإضمار ما يخالفه، هم والمبتدعة سواء في العمل، وأما الإيمان فتجد المنافقين ـ حقّاً ـ لا يؤمنون و إنّ قلوبهم لا تهوى الإيمان ولا تعتقد به مطلقاً، وما يظهرونه إنما ليخادعون به الناس، إذاً هم يتظاهرون بالإيمان ولا إيمان لهم، وهذا ينطبق أيضاً على أولئك الذين في قلوبهم مرض، وعلى أولئك الذين في قلوبهم زيغ؛ الذين يتّبعون ما تشابه من القرآن ولم يذعنوا إلى محكمه، وبغيتهم في ذلك الفتنة؛ فتنة الناس وإضلالهم والتغرير بهم، وبغيتهم أيضاً الميل عن

---

١. الإسراء: ٣٥.

٢. الأعراف: ٥٣.

٣. الأعراف: ٥٢.

٤. الأعراف: ٥٣.

الإستقامة بتأويل المتشابه إنتصاراً لباطلهم وميلهم عن الحقّ إلى ما تشتهيه أنفسهم.

وعليه أن المنافقين والمبتدعة يشكّلان خطراً كبيراً على الأمة لأن كلاً منهما استفاد من تلبيس الحقّ بالباطل، ومن أولئك أصحاب الزيغ، ومن في قلبه مرض، والذي يطلب الفتنة وتأويل الآيات المتشابه وفق مرامه، كل هؤلاء كانوا بين الناس وحتى قبل نزول القرآن إلا أنهم غير مشخّصين في الخارج، ولَمّا نزل القرآن الكريم أشار إليهم لأنهم موجودون في كل زمان ومكان وبالخصوص بين ظهراني المسلمين الأوائل أيّ زمن التشريع والنّبي آنذاك معهم يتلوا عليهم الكتاب بنفسه، ويعلّمهم ويبيّن لهم ما يحتاجون إليه من بيان، وهكذا بعد وفاته ﷺ أنيطت مهمّة البيان والتعليم للأئمة المعصومين عليهم السلام، إذ نصّبهم النّبي اعلاماً للأمة ـ ليهتدوا بهم ويسلكون نهجهم ـ فهم الهداة المرضيّين وهم الأعلام الواضحة، وهم السبيل إلى الله، وهم حبل الله المتين وصراطه المستقيم، وهم قواعد العلم، وهم السبب المتصل بين الأرض والسماء.

إذاً إطلاق التأويل وإرادة المعنى المخالف لظاهر اللفظ لم يكن استعمالاً مولّداً نشأ بعد نزول القرآن.

نعم إنّ الفِرَق الكلاميّة والمذاهب العقائديّة المنحرفة نشأت في وقت متأخّر عن نزول القرآن؛ فالمجسّمة والمشبّهة برزت في أوائل القرن الثاني الهجري، وأصبحت من المدارس المعروفة في القرن الثاني الهجري والثالث منه، ودانت به طائفة كبيرة من الأشاعرة إلى يومنا هذا، والله العالم فتدبّر.

قبل أن ننتقل إلى الصنف الثاني من الناس يجدر بنا أن نوضح أمراً آخر فيما ذكره العلامة رحمه الله في صدد الفكرة التي ذهب إليها، في كون إطلاق التأويل وإرادة المعنى المخالف لظاهر اللفظ استعمال مولّد نشأ بعد نزول القرآن...

أقول: هذا هو رأي إبن تيمية؛ حيث إنّه في معرض حديثه قد ذكر الرأي المختار وهو كون الواو للعطف وردّ بقية الآراء وهذا نص كلامه:

«وبالجملة فالدلائل الكثيرة توجب القطع ببطلان قول من قال: إنّ في القرآن آيات لا

يعلم معناها الرسول ولا غيره، نعم قد يكون في القرآن آيات لا يعلم معناها كثير من العلماء فضلاً عن غيرهم، وليس ذلك في آية معيّنة، بل قد يشكل على ما يعرفه تارة يكون:

أ) لغرابة اللفظ؛

ب) وتارة يكون لاشتباه المعنى بغيره؛

جـ) وتارة لشبهة في نفس الإنسان تمنعه من معرفة الحقّ؛

د) وتارة لعدم التدبر التامّ؛

هـ(وتارة لغير ذلك من الأسباب؛

فيجب القطع بأن قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أن الصواب قول من يجعله معطوفاً ويجعل الواو لعطف مفرد على مفرد أو يكون كلا القولين حقاً وهي قراءتان».

ثم يقول:

والتأويل المنفي غير التأويل المثبت، وإن كان الصواب هو قول من يجعلها واو استئناف فيكون التأويل المنفي علمه عن غير الله هو الكيفيّات التي لا يعلمها غيره وهذا فيه نظر.

جاء عن إبن عباس أنّه قال: أنا من الراسخين الذين يعلمون تأويله.

وجاء عنه: إنّ الراسخين لا يعلمون تأويله.

وجاء عنه أنّه قال: التفسير على أربعة أوجه:

أ) تفسير تعرفه العرب من كلامها؛

ب) وتفسير لا يعذر أحد بجهالته؛

جـ) وتفسير يعلمه العلماء؛

د) وتفسير لا يعلمه إلا الله ومن ادّعى علمه فهو كاذب؛

قال إبن تيمية:

وهذا القول يجمع القولين، ويبيّن أن العلماء يعلمون من تفسيره ما لا يعلمه غيرهم وأن فيه ما لا يعلمه إلا الله.

ثم يعقّب إبن تيمية على تلك الأقسام ويردّ من قال أن الواو استئنافية، وكل ذلك لا يهمّنا، بل الذي يهمّنا ما نحن فيه وهو:

إنّ التأويل الذي أشار إليه العلامة الطباطبائي وقال عنه استعمال مولّد قد سبقه إليه إبن تيمية وإليك نص عبارته:

«فأمّا من جعل الصواب قول من جعل الوقف عند قول (إلا الله) وجعل التأويل بمعنى التفسير فهذا خطأ قطعاً، وأما التأويل بالمعنى الثالث وهو صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح فهذا الاصطلاح لم يكن بعد في عهد الصحابة، بل ولا التابعين، بل ولا الأئمة الأربعة، ولا كان التكلم بهذا الاصطلاح معروفاً في القرون الثلاثة، بل ولا علمت أحداً فيهم خصّ لفظ التأويل بهذا،[1] ولكن لَمّا صار تخصيص لفظ التأويل بهذا شائعاً في عرف كثير من المتأخّرين فظنّوا أن التأويل في الآية هذا معناه، صاروا يعتقدون أن لمتشابه القرآن معانٍ تخالف ما يفهم منه... الخ».[2]

لقد ذكرنا في الصفحات السابقة الصنف الأول من الناس، وكما أشارت إليهم الآية الكريمة: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ وهنا نذكر الصنف الثاني من الناس كما أشارت إليه الآية الكريمة في مقطعها الأخير، قال ـ وعز من قائل بعدما بيّن أنه سبحانه يعلم تأويل المتشابه: ﴿وَالرَّاسِخُونَ[3] فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾.

لقد عرفت ـ كما تقدم ـ معنى التأويل،بقي علينا أن نبحث عن الذي يعلم ذلك التأويل فصريح الآية تقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ﴾. وهذا التأويل هو الذي استأثره الله لنفسه ولم يطّلع عليه أحداً من خلقه كعلم الساعة ويوم القيامة وخروج الدجّال ونزول عيسى عليه السلام وأشباه ذلك، فالإيمان به واجب، وهذا مذهب أكثر المفسرين؛ منهم إبن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب وعائشة وأكثر التابعين، وعلى هذا التقدير تكون (الواو) في قوله

---

١. وعبارة العلامة في هذا: «وأما إطلاق التأويل وإرادة المعنى المخالف لظاهر اللفظ، فاستعمال مولّد نشأ بعد نزول القرآن..» الميزان ٣: ٢٧.

٢. تفسير المنار ٣: ١٨١، نقلاً عن تفسير سورة الإخلاص لابن تيمية.

٣. الراسخون: الثابتون، تقول رسخ الشيء رسوخاً إذا ثبت في موضعه.

﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾[1] للاستئناف بكلام جديد وهو قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾[2] وهذا القول ـ على حد زعمهم ـ لا صلة له بقوله سبحانه المتقدم: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾، وقد ذهب إلى ذلك كل من أبي بن كعب وعائشة وعروة بن الزبير وابن عباس والحسن وأكثر التابعين واختاره الكسائي والفراء والأخفش.

والقول الثاني: أن (الواو) في قوله ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ هي واو عطف، أي: أن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم، ومع علمهم بذلك فهم القائلون: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾أي: المحكم والمتشابه وقد اختار العلامة الطباطبائي الرأي الأول فقال:

وظاهر الحصر كون العلم بالتأويل مقصوراً عليه سبحانه، وأما قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ ظاهر الكلام أن الواو للاستئناف بمعنى كونه طرفاً للترديد الذي يدلّ عليه قوله في صدر الآية: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[3] والمعنى: أن الناس في الأخذ بالكتاب قسمان: فمنهم من يتبع ما تشابه منه ومنهم من يقول ـ إذا تشابه عليه شيء منه ـ آمنّا به كل من عند ربنا، وإنما اختلفا لاختلافهم من جهة زيغ القلب ورسوخ العلم. ثم يقول رحمه الله:

«على أنه لو كان الواو للعطف، وكان المراد بالعطف تشريك الراسخين في العلم بالتأويل كان منهم رسول الله صلى الله عليه وآله وهو أفضلهم، وكيف يتصور أن ينزل القرآن على قلبه وهو لا يدري ما أريد به...».[4]

أقول: واعتراض السيِّد الطباطبائي من خلال ربط موضوع العطف مع كون النَّبي صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين في العلم ثم تساؤله كيف نزل القرآن على قلبه وهو لا يدري ما أريد به... لا يستسيغه كل من نطق بالضاد، وهكذا اعتراض يأباه الفهم العرفي، كما أن اللغة كاشفة عن سقمه، ثم أيّ منافاة بين كون الرسول صلى الله عليه وآله من الراسخين في العلم ـ الذين يعلمون تأويل القرآن ـ وبين كونه صلى الله عليه وآله هو أفضلهم؟ (أنظر الرواية الرابعة في الصفحات الآتية).

---

١. آل عمران: ٧.
٢. آل عمران: ٧.
٣. آل عمران: ٧.
٤. الميزان ٣: ٢٧.

ألم يكن علمه بالقرآن من الله سبحانه؟

إنّه حقاً (هوﷺ أفضل من الراسخين لأن الوحي نزل عليه دون غيره، فهو أعلم بالقرآن وأخبر بهﷺ من غيره.

ثم ما هو وجه الربط بين الأفضلية في العلم والعطف الذي نحن بصدده؟

ثم ما هو وجه الملازمة بين الرسوخ في العلم وبين ذلك التساؤل الذي طرحه السيّد في كيفية تصور نزول القرآن على قلب النّبيﷺ والنّبي لا يدري ما أريد به من معنى؟

أقول: لا نفهم من هذا الطرح إلا إقحام بعض المطالب، ليس هذا موردها، لأن الذي نزل عليه القرآن هو أدرى به من غيره، وإذا كان غيره قد علم شيئاً ما فإنما علمه بفضل النّبيﷺ لذا فإن النّبي هو أفضل الراسخين جميعاً.

و إنّ صدر الآية صريح في كونه نزل القرآن على قلبه الشريف، وقد استوعبه بكل دقائقه وأحكامه وأوامره ونواهيه وسننه، ثم هناك آيات كثيرة توضّح مكانة الرسولﷺ وعلمه، وتبيّن منزلته من رسالة السماء وكتاب الله العزيز، فما بعثه الله سبحانه إلا بالتبشير والإنذار والهداية والرحمة للناس كافة، كما أنه ما بُعث للناس إلا ليعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنن..

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.[2]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ﴾.[3]

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.[4]

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾.[5]

---

١. النساء: ١١٣.

٢. إبراهيم: ١.

٣. النساء: ١٠٥.

٤. البقرة: ٩٩.

٥. الحج: ١٦.

وقوله تعالى: ﴿هُوَالَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.[٤]

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.[٥]

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾.[٦]

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.[٧]

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.[٨]

ثم الحكمة التي خصّت ببعض الأنبياء عليهم السلام ومنهم الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾.[٩]

هذه جملة من الآيات الكريمة التي تؤكد على كون النّبي صلى الله عليه وآله عالماً بالقرآن عارفاً بتفسيره وتأويله ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وعامّه وخاصّه ومطلقه ومقيّده.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾[١٠] يا محمد صلى الله عليه وآله.

---

١. الصف: ٩.
٢. إبراهيم: ٤.
٣. البقرة: ١١٩.
٤. البقرة: ١٥١.
٥. الأنبياء: ١٠٧.
٦. آل عمران: ١٦٤.
٧. النحل: ٤٤.
٨. الجمعة: ٢.
٩. البقرة: ٢٦٩.
١٠. آل عمران: ٧.

وأنت الذي: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.[١]

وأنت الذي أنزل عليك الكتاب: ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾.[٢]

وأنت الذي: ﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾.[٣]

إذن نستخلص مما تقدم أن قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ إذا لم نقل أن الرسول أحد الراسخين وهو أفضل منهم جميعاً، فإن الآية ناظرة إلى فئة أخرى غير الذي نزل عليه الكتاب كما في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾[٤] فكلامه سبحانه في صدد تقسيم الناس وبيان أصنافهم، فهناك أهل الزيغ والفتنة، وهناك طائفة من المؤمنين لهم رسوخ في العلم قد عناهم الله سبحانه وتعالى وهو يقرّر حالهم ويبيّن شأنهم.

هؤلاء الراسخون في العلم هم الذي يعلمون تأويل المتشابه ومعناه الذي خفي على الناس.

ولو قال أحدهم: أن المتشابه لا يعلمه إلا الله وهو كعلم الغيب.

قلنا إذا كان علم الغيب على وجه الإطلاق لا يعلمه إلا الله سبحانه، فقد وردت آيات مستثناة، إذْ اطّلع على غيبه بعض الناس من رسل وأوصياء، إذْ قال سبحانه: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾.[٥]

وهذا لا ينافي وما نحن فيه إذ إنّ علم المتشابه مخصوص بالله سبحانه على وجه الإطلاق، والاستثناء وارد فيه حيث أنّ الراسخين في العلم قد خصّهم سبحانه بعلم المتشابه وليس هذا بعزيز ولا خطورته كخطورة علم الغيب!

ثم لتأكيد هذا الأمر ـ إنّ الراسخين في العلم يعلمون المتشابه وهم طائفة المعصومين عليهم السلام ـ نورد دليلين:

الاوّل، و هو الدليل النقلي و فيه عدة روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام:

---

١. البقرة: ١٢٩.
٢. النحل: ٦٤.
٣. النحل: ٨٩.
٤. سورة آل عمران: ٧.
٥. سورة الجن: ٢٦ ـ ٢٧.

(١) العيّاشي في تفسير الآية (٧ من سورة آل عمران) بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أن القرآن محكم ومتشابه فأما المحكم فنؤمن به ونعمل به، وندين به، وأما المتشابه فنؤمن به ولا نعمل به هو قول الله: ﴿فَأَمَّا الَّذينَ في قُلُوبهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَة وَابْتِغَاء تَأْويله وَمَا يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ في الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا به كُلٌّ مِّنْ عند رَبِّنَا﴾ والراسخون في العلم هم آل محمد صلى الله عليه وآله».[١]

(٢) وعنه بسنده عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ «نحن نعلمه».[٢]

(٣) وعنه بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نحن الراسخون في العلم فنحن نعلم تأويله».[٣]

(٤) وعنه بسنده عن بريد بن معاوية قال: «قلت لأبي جعفر عليه السلام قول الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْويلَهُ إلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ قال: يعني تأويل القرآن كله، إلا الله والراسخون في العلم فرسول الله صلى الله عليه وآله أفضل الراسخين، قد علّمه الله جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله منزلاً عليه شيئاً لم يعلّمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه، فقال الذين لا يعلمون: ما نقول إذا لم نعلم تأويله فأجابهم الله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا به كُلٌّ مِّنْ عند رَبِّنَا﴾ والقرآن له خاص وعامّ وناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه فالراسخون في العلم يعلمونه».[٤]

وفي *المجمع* قال: «ومما يؤيّد هذا القول أن الصحابة والتابعين أجمعوا على تفسير جميع أيَ القرآن ولم نرهم توقّفوا على شيء منه ولم يفسّروه بأن قالوا هذا متشابه لا يعلمه إلا الله. وكان إبن عباس يقول في هذه الآية أنا من الراسخين في العلم».[٥]

(٥) في تفسير *نور الثقلين* نقلاً عن *الاحتجاج* للطبرسي عن أمير المؤمنين عليه السلام - في

---

١. تفسير العياشي ١: ١٦٣؛ والبرهان ١: ٢٧١؛ والبحار ١٩: ٩٣.
٢. المصدر؛ والبحار ١٩: ٢٧؛ والصافي ١: ٢٤٧.
٣. تفسير العياشي ١: ١٦٤؛ والبحار ٢٣: ١٩٩؛ والصافي ١: ٢٤٧؛ والبرهان ١: ٢٧١؛ والمناقب لابن شهر آشوب ٣: ٥٢٢.
٤. المصدر، ١: ١٦٤؛ ومجمع البيان ٢: ٤١٠.
٥. مجمع البيان ٢: ٤١٠.

حديث طويل فيه ـ: ثم إنّ الله جلّ ذكره لسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحدثه المبطلون من تغيير كلامه قسّم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلاّ من صفا ذهنه ولطف حسّه وصحّ تمييزه ممّن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعرفه إلاّ الله وأنبياؤه والراسخون في العلم.

وإنّما فعل ذلك لئلاّ يدّعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله من علم الكتاب ما لم يجعله الله لهم وليقودهم الاضطرار إلى الإيتمار لمن ولاّه أمرهم، فاستكبروا عن طاعته تعزّزاً وافتراءً على الله، واغتراراً بكثرة من ظاهرهم وعاونهم وعاندهم جل اسمه ورسوله صلى الله عليه وآله».[1]

(٦) وعن أمير المؤمنين عليه السلام ـ في حديث طويل فيه ـ يقول: «وقد جعل الله للعلم أهلاً وفرض على العباد طاعتهم بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾».

(٧) وفي نهج البلاغة قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا كذباً وبغياً علينا أن رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم».

(٨) وعن سليم بن قيس الهلالي قال: «سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: ما نزلت آية على رسول الله إلا أقرأنيها، وأملاها عليّ فأكتبها بخطي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومتشابهها ودعا الله أن يعلّمني فهمها وحفظها فما نسيت آية من كتاب الله».[2]

وعن سليم بن قيس الهلالي: «عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث له مع معاوية قال: القرآن حق ونور وهدى ورحمة وشفاء للمؤمنين الذين آمنوا، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى، يا معاوية إنّ الله عزّوجَلّ لم يدع صنفاً من أصناف الضلالة والدعاة إلى النار إلا وقد رد عليهم واحتج في القرآن ونهى عن اتّباعهم وأنزل فيهم قرآناً ناطقاً عليهم، علمه من علمه وجهله من جهله، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول ليس من القرآن آية إلاّ ولها ظهر وبطن، ولا منه حرف إلا وله حدّ، ولكل حدٍّ مطلع على ظهر القرآن وتأويله، وما

---

١. تفسير نور الثقلين ١٠: ٢٦٠.

٢. تفسير العياشي ١: ١٤؛ وتفسير الصافي ١: ١١؛ وتفسير البرهان ١: ١٧.

يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم، وأمر الله عزّوجَلّ الأئمة أن يقولوا آمنّا به كلّ من عند ربّنا، وأن يسلموا لنا، وأن يردّوا علمه إلينا، وقال الله عزّوجَلّ: ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ويطلبونه».[١]

(٩) وعن عبد الرحمن بن كثير قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: نحن ولاة أمر الله، وخزنة علم الله وعيبة وحي الله».[٢]

(١٠) وعن سورة بن كليب قال: «قال لي أبو جعفر عليه السلام: والله إنّا لخزّان الله في سمائه وأرضه، لا على ذهب ولا على فضّة إلا على علمه».[٣]

(١١) وعن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قلت له: جعلت فداك ما أنتم؟ قال: نحن خزّان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحجّة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض».[٤]

(١٢) وعن أبي حمزة قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله قال الله تبارك وتعالى استكمال حجّتي على الأشقياء من أمّتك من ترك ولاية عليّ والأوصياء من بعدك فإنّ فيهم سنّتك وسنة الأنبياء عليهم السلام من قبلك، وهم خزّاني على علمي من بعدك، ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لقد أنبأني جبرائيل عليه السلام بأسمائهم وأسماء آبائهم».[٥]

عن عبد الله بن أبي يعفور قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: يا إبن أبي يعفور إن الله واحدٌ متوحّد بالوحدانية، متفرّد بأمره، فخلق خلقاً فقدّرهم لذلك الأمر فنحن هم يا إبن أبي يعفور فنحن حجج الله في عباده، وخزّانه على علمه، والقائمون بذلك».[٦]

(١٣) عن علي بن جعفر عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام إن الله

---

١. البرهان ١: ٢٧٠.
٢. الكافي ١: ١٩٢ ـ ١٩٣، كتاب الحجة، باب أن الأئمة خزنة علمه.
٣. المصدر.
٤. المصدر.
٥. المصدر.
٦. المصدر، ١: ١٩٣، ح ٥.

عزّوجَلّ خلقنا فأحسن خلقنا، وصوّرنا فأحسن صورنا وجعلنا خزّانه في سمائه وأرضه، ولنا نطقت الشجرة وبعبادتنا عبد الله عزّوجَلّ، ولولانا ما عبد الله».[١]

(١٤) عن المفضّل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما جاء به علي عليه السلام آخذ به وما نهى عنه انتهى عنه، جرى له من الفضل مثل ما جرى لمحمد صلى الله عليه وآله ولمحمد صلى الله عليه وآله الفضل على جميع من خلق الله عزّوجَلّ، المتعقّب عليه في شيء من أحكامه كالمتعقب على الله وعلى رسوله، والراد عليه في صغيرة أو كبيرة على حدّ الشرك بالله، كان أمير المؤمنين عليه السلام باب الله الذي لا يؤتى إلا منه ـ إلى أن يقول عليه السلام: ـ وإن رسول الله صلى الله عليه وآله يدعى فيكسى وأدعى فأكسى، ويستنطق وأُستنطق فأنطق على حدّ منطقه، ولقد أعطيت خصالاً ما سبقني إليها أحد قبلي، علمت المنايا والبلايا والأنساب وفصل الخطاب، فلم يفتني ما سبقني ولم يعزب عنّي ما غاب عني، أبشّر بإذن الله وأؤدّي عنه، كل ذلك من الله مكّنني فيه بعلمه».[٢]

ومثله عن سعيد الأعرج وسليمان بن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام.

ومثله عن أبي الصامت الحلواني عن أبي جعفر عليه السلام.

(١٥) في حديث طويل عن عبد العزيز بن مسلم عن الإمام الرضا عليه السلام وهو يصف فضل الإمام وصفاته، جاء في كلامه عليه السلام: «... إن الأنبياء والأئمة صلوات الله عليهم يوفّقهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم، فيكون علمهم فوق علم أهل الزمان في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لا يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[٣] وقوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.[٤] وقال لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾[٥] وقال في الأئمة من أهل بيت نبيه

---

١. المصدر، ح ٦.
٢. الكافي ١: ١٩٧، باب أن الأئمة هم أركان الأرض، ح ١.
٣. يونس: ٣٥.
٤. البقرة: ٢٤٧.
٥. النساء: ١١٣.

وعترته وذريّته صلوات الله عليهم: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِه فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِه وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾،[١] وإن العبد إذا اختاره الله عزّوجلّ لأمور عباده شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة، وألهمه العلم إلهاماً، فلم يعِ بعده بجواب، ولا يحير فيه عن الصواب، فهو معصوم مؤيّد، موفّق مسدّد، قد أمن من الخطايا والزلل والعثار يخصّه الله بذلك ليكون حجّته على عباده، وشاهده على خلقه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.[٢]

(١٦) عن أبي حمزة الثمالي قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إن الله تبارك وتعالى يقول: استكمال حجّتي على الأشقياء من أمّتك من ترك ولاية عليّ ووالى أعداءه، وأنكر فضله وفضل الأوصياء من بعده، فإن فضلك فضلهم، وطاعتك طاعتهم، وحقّك حقّهم، ومعصيتك معصيتهم، وهم الأئمة الهداة من بعدك، جرى فيهم رُوحك ورَوحك ما جرى فيك من ربك وهم عترتك من طينتك ولحمك ودمك وقد أجرى الله عزّوجلّ فيهم سنّتك وسنة الأنبياء عليهم السلام قبلك، وهم خزّاني على علمي من بعدك، حقّ عليّ لقد اصطفيتهم وانتجبتهم وأخلصتهم وارتضيتهم، ونجى من أحبّهم ووالاهم وسلّم لفضلهم، ولقد أتاني جبرئيل عليه السلام بأسمائهم وأسماء آبائهم وأحبّائهم والمسلّمين لفضلهم».[٣]

(١٧) وعن عبد الله بن عجلان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّوجلّ: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٤] قال رسول الله صلى الله عليه وآله الذكر أنا والأئمة أهل الذكر وقوله عزّوجلّ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[٥] قال أبو جعفر عليه السلام: «نحن قومه ونحن المسؤولون».[٦]

---

١. النساء: ٥٤ ـ ٥٥.
٢. أصول الكافي ١: ٢٠٢، باب نادر في فضل الإمام وصفاته، ح ١.
٣. الكافي ١: ٢١٨، ح ٤.
٤. النحل: ٤٣.
٥. الزخرف: ٤٤.
٦. الكافي ١: ٢١٠، باب: أن هل الذكر الذين أمر الله الخلق بسؤالهم هم الأئمة عليهم السلام، وفيه (٩) أحاديث.

(١٨) عن سعد عن جابر عن أبي جعفرعليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[١] قال أبوجعفرعليه السلام: «إنما نحن الذين يعلمون والذين لا يعلمون عدّونا، وشيعتنا أولو الألباب».

ومثله عن النضر بن سويد عن جابر.[٢]

(١٩) وعن أبي بصير قال: «سمعت أبا جعفرعليه السلام يقول في هذه الآية: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾،[٣] فأومأ بيده إلى صدره.

وعن إبن محبوب عن عبد العزيز العبدي عن أبي عبد اللهعليه السلام في قول الله عزّوجلّ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، قال: «هم الأئمةعليهم السلام».[٤]

(٢٠) عن زرارة والفضيل، عن أبي جعفرعليه السلام قال: «إن العلم الذي نزل مع آدمعليه السلام لم يرفع والعلم يتوارث، وكان عليّعليه السلام عالم هذه الأمة، وإنه لم يهلك منّا عالم قطّ إلا خلفه من أهله من علم مثل علمه أو ماشاءالله».[٥]

(٢١) عن علي بن النعمان رفعه عن أبي جعفرعليه السلام قال: «قال أبو جعفرعليه السلام يمصّون الثماد ويدعون النهر العظيم، قيل له: وما النهر العظيم؟ قال: رسول اللهصلى الله عليه وآله والعلم الذي أعطاه الله إن الله عزّوجلّ جمع لمحمدصلى الله عليه وآله سنن النبيّين من آدم وهلمّ جرّا إلى محمدصلى الله عليه وآله. فقيل له: وما تلك السنن؟ قال: علم النبيّين بأسره، وأنّ رسول اللهصلى الله عليه وآله صيّر ذلك كلّه عند أمر المؤمنينعليه السلام.

فقال له رجل: يا إبن رسول الله فأمير المؤمنين أعلم أم بعض النبيّين؟ فقال أبو جعفرعليه السلام: اسمعوا ما يقول؟

إن الله يفتح مسامع من يشاء، إنّي حدّثته أن الله جمع لمحمدصلى الله عليه وآله علم النبيّين وأنه جمع

---

١. الزمر: ٩.
٢. الكافي ١: ٢١٢.
٣. العنكبوت: ٤٩.
٤. الكافي ١: ٢١٣، باب إن الأئمة قد أوتوا العلم وأثبت في صدورهم، وفي الباب خمس أحاديث.
٥. المصدر، ٢: ٢٢٢.

ذلك كلّه عند أمير المؤمنين عليه السلام وهو يسألني أهو أعلم أم بعض النبيّين.[١]

(٢٢) عن سدير عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث له يقول فيه مجيباً سدير بعدما سأله فما أنتم؟ قال: «نحن خزّان علم الله، نحن تراجمة أمر الله، نحن معصومون، أمر الله تبارك وتعالى بطاعتنا ونهى عن معصيتنا، نحن الحجّة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض».[٢]

(٢٣) عن أبي بصير قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾، قال: خلقٌ من خلق الله عزّوجلّ أعظم من جبرائيل وميكائيل، كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله يخبره ويسدده وهو مع الأئمة من بعده».[٣]

(٢٤) عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سمعته يقول: لـمّا أن قضى محمد نبوّته، واستكمل أيّامه، أوحى الله تعالى إليه أن يا محمد قد قضيت نبوّتك واستكملت أيّامك، فاجعل العلم الذي عندك والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوّة في أهل بيتك عند علي بن أبي طالب عليه السلام، فإني لن أقطع العلم والإيمان والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوّة من العقب من ذرّيتك كما لم أقطعها من ذرّيات الأنبياء».[٤]

(٢٥) عن عبد الحميد بن أبي الديلم عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث طويل نقتطف جملة من فقراته. قال الإمام عليه السلام: «فوقعت الحجّة بقول النبي صلى الله عليه وآله بالكتاب الذي يقرأه الناس فلم يزل يلقي فضل أهل بيته بالكلام ويبيّن لهم بالقرآن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، وقال عزّ ذكره: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾، ثم قال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾، فكان علي عليه السلام، وكان حقّه الوصية التي جعلت له، والاسم الأكبر، وميراث العلم، وآثار علم النبوة فقال: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، ثم قال: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾،

---

١. المصدر، ١: ٢٢٢، باب أن الأئمة عليهم السلام ورثة العلم، ح ٦.

٢. المصدر، ١: ٢٦٩، ح ٦.

٣. المصدر السابق ١: ٢٧٣، ح ١.

٤. الكافي ١: ٢٩٣، باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين عليه السلام.

يقول أسألكم عن المودّة التي أنزلت عليكم فضلها، مودة القربى بأي ذنب قتلتموهم وقال جلّ ذكره: ﴿فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾، قال: الكتاب هو الذكر وأهله آل محمد صلى الله عليه وآله أمر الله عزّوجَلّ بسؤالهم ولم يؤمروا بسؤال الجهّال وسمّى الله عزّوجَلّ القرآن ذكراً فقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وقال عزّوجَلّ: ﴿أَطِيعُواْ اللَهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾، وقال عزّوجَلّ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾، فرد الأمر ـ أمر الناس ـ إلى أولى الأمر منهم الذين أمر بطاعتهم وبالرد إليهم ـ إلى أن يقول: ـ فلمّا قدم المدينة أتته الأنصار فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله إن الله عزّوجَلّ ذكره قد أحسن إلينا وشرّفنا بك وبنزولك بين ظهرانينا فقد فرّح الله صديقنا وكبّت عدونا وقد يأتيك وفودٌ فلا تجد ما تعطيهم فيشمت بك العدو، فنحبُّ أن تأخذ ثلث أموالنا حتى إذا قدم عليك وفد مكّة وجدت ما تعطيهم، فلم يرد رسول الله صلى الله عليه وآله عليهم شيئاً وكان ينتظر ما يأتيه من ربّه فنزل جبرائيل عليه السلام وقال: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ ولم يقبل أموالهم فقال المنافقون: ما أنزل الله هذا على محمد وما يريد إلا أن يرفع بضبع إبن عمه ويحمل علينا أهل بيته يقول أمس: من كنت مولاه فعلي مولاه، واليوم: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، ثم نزّل عليه آية الخمس فقالوا: يريد أن يعطيهم أموالنا وفيئنا ثم أتاه جبرائيل فقال: يا محمد إنّك قد قضيت نبوّتك واستكملت أيّامك فاجعل الاسم الأكبر، وميراث العلم وآثار علم النبوّة عند علي عليه السلام فإنّي لم أترك الأرض إلا ولي فيها عالمٌ تعرف به طاعتي، وتعرف به ولايتي، ويكون حجة لمن يولد بين قبض النّبي إلى خروج النّبي الآخر، قال: فأوصى إليه بالاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة، وأوصى إليه بألف كلمة وألف باب، يفتح كل كلمة وكل باب ألف كلمة وألف باب».[١]

(٢٦) وفي الاحتجاج للطبرسي بإسناده إلى محمد بن علي الباقر عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث طويل يذكر فيه خطبة الغدير وفيها قال صلى الله عليه وآله: «معاشر الناس تدبّروا القرآن وافهموا

١. الكافي، باب الإشارة والنص على أمير المؤمنين عليه السلام، ح ٣.

آياته وانظروا محكماته، ولا تتبّعوا متشابهه، فوالله لن يبيّن لكم زواجره، ولا يوضّح لكم تفسيره إلاّ الذي أنا آخذ بيده ومصعده ليّ وشائل ـ رافع ـ بعضده ومعلمكم إنّ من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه، وهو علي بن أبي طالب عليه السلام أخي ووصيّ، وموالاته من الله عزّوجلّ أنزلها عليّ».[1]

(٢٧) في روضة الكافي بسنده عن أبي عبيدة قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ ذكره: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾، قال: فقال: يا أبا عبيدة! إنّ لهذا تأويل لا يعلمه إلا الله والراسخون في العلم من آل محمد صلى الله عليه وآله.. الخ» الحديث.

(٢٨) في تفسير علي بن إبراهيم بسنده عن الباقر كالحديث المتقدّم مثله.

(٢٩) في تفسير نور الثقلين بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «سمعته يقول: إنّ القرآن زاجر وآمر، يأمر بالجنة ويزجر عن النار، وفيه محكم ومتشابه، فأما المحكم فيؤمن به ويعمل به، وأما المتشابه فيؤمن به ولا يعمل به، وهو قول الله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، وآل محمد عليهم السلام الراسخون في العلم».[2]

(٣٠) وفي تفسير نور الثقلين بسنده عن أبي الصباح الكناني قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: نحن الراسخون في العلم.. الخ».[3]

(٣١) وفيه بسنده عن أيّوب بن الحرّ وعمران بن علي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نحن الراسخون في العلم ونحن نعلم تأويله».[4]

(٣٢) وفيه بسنده عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الراسخون في العلم أمير المؤمنين والأئمة من بعده عليهم السلام».[5]

---

١. الاحتجاج ١: ٥٥.
٢. هذه الأحاديث المتقدمة تجدها في تفسير نور الثقلين ١: ٢٦٠ ـ ٢٦٥.
٣. المصدر.
٤. المصدر.
٥. المصدر.

(٣٣) في كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى سليم بن قيس الهلالي قال: «سمعت علياً عليه السلام يقول: ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها عليّ وأكتبها بخطّي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها، ومحكمها ومتشابهها ودعا الله عزّوجَلّ أن يعلّمني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علما أملاه عليّ فكتبته، وما ترك شيئاً علّمه الله عزّوجَلّ من حلال وحرام ولا أمر ولا نهي، وما كان أو يكون عن طاعته أو معصيته إلا علّمنيه وحفظته، فلم أنس منه حرفاً واحداً..».[١]

(٣٤) وفي اللوامع النورانية في ذكر أسماء علي عليه السلام قال: «والاسم السادس والستّون أنّه من الراسخين في العلم في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا﴾، الآية.[٢]

(٣٥) وفيه بسنده عن أبي الصباح الكناني قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: نحن قوم فرض الله طاعتنا، لنا الأنفال، ولنا صفو المال، ونحن الراسخون في العلم».[٣]

(٣٦) وفيه بسنده عن فضيل بن يسار قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية (ما من آية إلا وله ظهر وبطن قال: ظهره تنزيله وبطنه تأويله، منه ما مضى ومنه ما لم يجيء، يجري كما يجري الشمس والقمر، كلما جاء تأويل شيء يكون على الأموات كما يكون على الأحياء قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ نحن نعلمه».[٤]

(٣٧) وعن بريد بن معاوية عن أحدهما عليهما السلام في قول الله عزّوجَلّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ قال: فرسول الله أفضل الراسخين في العلم، قد علّمه الله عزّوجَلّ علم جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل وما كان الله لينزل عليه شيئاً لا يعلّمه تأويله وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله.

---

١. المصدر.
٢. اللوامع النورانية ١: ٤٢.
٣. المصدر.
٤. المصدر.

وكيف لا يعلمونه؟ وهم مبدأ العلم وإليهم منتهاه وهم معدنه وقراره ومأواه».[١]

(٣٨) وفيه بسنده عن حمران بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن جبرئيل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وآله برمّانتين، فأكل رسول الله صلى الله عليه وآله إحداهما وكسر الأخرى نصفين، فأكل نصفاً وأطعم علياً نصفاً.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أخي هل تدري ما هاتان الرمّانتان؟

قال: لا. قال: أما الأولى فالنبوّة ليس لك فيها نصيب.

وأمّا الأخرى فالعلم أنت شريكي فيه.

فقلت: أصلحك الله كيف يكون شريكه فيه؟ قال: لم يعلّم الله محمداً علماً إلا وأمره أن يعلّمه علياً عليه السلام».[٢]

(٣٩) وفيه بسنده عن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «نزل جبرائيل على محمد برمّانتين...» إلى آخر ما تقدم في الحديث السابق مع زيادة هذا نصّها:

«قال: فلم يعلم رسول الله صلى الله عليه وآله حرفاً مما علّمه الله عزّوجَلّ إلاّ وقد علّمه علياً، ثمّ إنتهى العلم إلينا، ثم وضع يده على صدره».[٣]

(٤٠) عن الحلبي عن أبي بصير قال: «دخلت على أبي عبد الله عليه السلام. في حديث طويل في تحديد العلم ابتداءً من تعليم الرسول علياً ألف باب من العلم يفتح له من كلّ باب ألف باب...[٤]

(٤١) من كتاب الأربعين رواية سعد الأربلي عن عمار بن خالد، عن إسحاق الأزرق، عن عبد الملك بن سليمان قال: «وجد في ذخيرة حواري عيسى عليه السلام رقّ فيه مكتوب بالقلم السرياني منقولاً من التوراة.

---

١. الكافي ١: ٢١٣؛ والبرهان ١: ٢٧٠؛ والوسائل ١٨: ١٣٢؛ والبحار ١٧: ١٣٠.

٢. المصدر، ١: ٢٦٣؛ والبرهان ٢: ٣٨٠؛ والبحار ٤٠: ٢١٠؛ وبصائر الدرجات: ص ٢٩٣.

٣. الكافي ١: ٢٦٣؛ والبرهان ٢: ٣٨٠؛ والبحار ٢٦: ١٧٣، ح ٤٤؛ عن بصائر الدرجات: ص ٢٩٥، ح ٣.

٤. المصدر، ١: ٢٣٨، الحديث الأول، باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام، أشار إلى هذه الأحاديث الأربعة؛ أيضاً السيد شرف الدين في كتابه تأويل الآيات الطاهرة ١: ١٠٠ ـ ١٠٤.

وذلك لما تشاجر موسى والخضر عليه السلام في قصّة السفينة والغلام والجدار ورجع موسى إلى قومه فسأله أخوه هارون عمّا استعمله من الخضر وشاهده من عجائب البحر.

فقال موسى عليه السلام: بينا أنا والخضر على شاطئ البحر إذ سقط بين أيدينا طائر فأخذ في منقاره قطرة من ماء البحر ورمى بها نحو المشرق، وأخذ منه ثانية ورمى بها نحو المغرب، ثمّ أخذ ثالثة ورمى بها نحو السماء، ثم أخذ رابعة ورمى بها نحو الأرض، ثم أخذ خامسة وألقاها في البحر، فبهتُّ أنا والخضر من ذلك وسألته عنه؟

فقال: لا أعلم، فبينا نحن كذلك وإذا بصياد يصيد في البحر فنظر إلينا، وقال: مالي أراكما في فكرة من أمر هذا الطائر؟ فقلنا له: هو ذاك.

فقال: أنا رجل صيّاد وقد علمت إشارته، وأنتما نبيّان لا تعلمان؟!

فقلنا: ما نعلم إلاّ ما علّمنا الله عزّوجلّ.

فقال: هذا طائر في البحر يسمّى (مسلماً) لأنه إذا صاح يقول في صياحه (مسلم مسلم) فأشار برمي الماء من منقاره نحو المشرق والمغرب والسماء والأرض وفي البحر يقول: إنه يأتي في آخر الزمان نبي يكون علم أهل المشرق والمغرب، وأهل السماء والأرض عند علمه مثل هذه القطرة الملقاة في البحر، ويرث علمه إبن عمّه ووصيه، فعند ذلك سكن ما كنا فيه من المشاجرة، واستقل كلّ واحد منا علمه، بعد أن كنا معجبين بأنفسنا ثمّ غاب عنّا فعلمنا أنه ملك بعثه الله إلينا ليعرّفنا نقصنا حيث ادّعينا الكمال».[١]

(٤٢) عن الأصبغ بن نباتة قال: «لما قدم أمير المؤمنين عليه السلام الكوفة صلّى بهم أربعين صباحاً يقرأ بهم: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ قال: فقال المنافقون لا والله ما يحسن إبن أبي طالب أن يقرأ القرآن. ولو أحسن أن يقرأ القرآن لقرأ بنا غير هذه السورة. قال: فبلغه ذلك، فقال: ويل لهم إني لأعرف ناسخه من منسوخه ومحكمه من متشابهه وفصله من فصاله وحروفه من معانيه والله ما من حرف نزل على محمد صلى الله عليه وآله إلا أعرف فيمن أنزل وفي أيّ يوم وفي أيّ موضع؛ ويل لهم أما يقرؤون: ﴿إِنَّ هَـذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ

١. البحار ١٣: ٣١٢، ح ٥٢؛ وعن رياض الجنان والبحار ٢٦: ١٩٩، ح ١٢؛ عن المحتضر: ص ١٠٠.

وَمُوسَى ﷺ، والله عندي ورثتهما من رسول الله ﷺ».[1]

هذه بعض الاحاديث الصحيحة و المعتبرة التي تدلّ على أن الائمه ﷺ هم الراسخون في العلم، فانتبه.

أقول: ثم لو أردنا مناقشة السيِّد الطباطبائي رحمه الله فيما أورده من تصويب رأي بعض العامة نقول له: إذا كانت الواو للاستئناف فهذا يعني جعل (الراسخون) مبتدأ وخبره (يقولون آمنّا) وعلى هذا التقدير سوف نخرج الراسخين في العلم عن فضيلة العلم بالتأويل ويحطّهم عن رتبة استحقوها وهم أهل البيت ﷺ دون غيرهم من الأوائل والأواخر، وقد مرّت عليك أحاديث كثيرة في هذا البيان، بل إنّ القرآن الكريم أفصح في سياقه وبيانه، إذ وصفهم بالرسوخ في العلم، أيّ فتح لهؤلاء المعصومين الأطهار الأبرار ـ علماء آل محمد ﷺ ـ باب العلم بالتأويل بلطفه، وكرّمهم بهذه الرتبة بتعليمه إيّاهم.

إذن يمكن أن نستخلص الحجة والدليل ـ في كون الراسخين في العلم هم أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب وبنيه الأحد عشر ﷺ ـ من القرآن الكريم، والنقل الصحيح من الفريقين، والعقل.

أما القرآن: فإنّ تمجيد الراسخين في العلم بهذا التمجيد السامي والصفة الفائقة إنّما يناسب عطفهم في مقام العلم بالتأويل ورسوخهم فيه، ومجّدهم في (الإيمان بمؤدّاه) على بصيرة من أمرهم.

وعلى هذا التفسير يكون قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾، جملة حالية، أيّ أنّ حال الراسخين في العلم في كونهم يعلمون تأويل المحكم وتأويل المتشابه، يؤكّدون عبوديّتهم لله سبحانه وخضوعهم الحقيقي له والتسليم لأوامره ونواهيه فـ(يقولون آمنا به) سواء كان ضمير (به) يعود إلى كلّ القرآن[2] أو يعود إلى قسم المتشابه فالنتيجة أنّهم (يقولون آمنا) أيّ بما عرفوه من مؤدّاه وهم بالتالي مؤمنون بكلّ هذا الكتاب الذي أنزل على صدر النّبيّ محمد ﷺ، ومؤمنون بمحكمه ومتشابهه، ويعرفون تفسيره وتأويله، ظاهره وباطنه وفيمن نزل ومتى و... .

---

١. تفسير العياشي ١: ١٤؛ وتفسير البرهان ١: ١٦.

٢. بدليل قوله تعالى الآتي: ﴿كلّ من عند ربنا﴾.

ثمّ لا ننسى أنّ الكثير من آيات القرآن تعد أساسيّات دينية قد إقتضت الحكمة إبهامها حال التنزيل بالإطلاق أو العموم أو الكناية أو غير ذلك مع بيان تأويلها وخصوصية المراد بقرائن الحال أو السنّة، كما وقع مثله في آية الزكاة إذ أهمل مقدارها ووقت أخذها ومورد وجوبها إلى سنة، ترويضاً للناس في أمرها وصعوبتها عليهم.

وأما النقل الصحيح من الفريقين:

فقد تقدم ـ من طرقنا ـ أكثر من أربعين رواية ذكرناها مع مصادرها وطرقها وتركنا جملة ما يماثلها توخّياً للاختصار، بقي علينا أن نذكر بعض مرويّات العامة التي ذهبت إلى كون الواو من (والراسخون) هي للعطف، كما أنّهم ذكروا عدّة روايات عن إبن عباس أنّه قال: أنا ممّن يعرف تأويله وأنا من الراسخين في العلم.

إليك بعضها:

في الدر المنثور أخرج إبن جرير وابن المنذر وإبن الأنباري من طريق مجاهد عن إبن عباس قوله: أنا ممّن يعرف تأويله.

وأخرج أحمد والطبراني وأبو نعيم في الحلية عن إبن عباس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «فقّهه في الدين وعلّمه التأويل».

وأخرج الحاكم أيضاً دعاء النّبيّ لإبن عباس في قوله صلى الله عليه وآله: «اللّهم علّمه تأويل القرآن».

وأخرج إبن ماجه وابن سعد والطبراني في دعاء النّبي لابن عباس: «اللّهم علّمه الحكمة وتأويل الكتاب».

وهكذا في كنز العمال ومختصره في كتاب الفضائل. ولو كان علم التأويل منحصراً بالله ولم يعلمه رسوله و لا الراسخون في العلم لما دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله لإبن عباس. وما هو معنى الدعاء بما لا يرجى وقوعه؟!!

وأخرج الحاكم في الصحيح على شرط البخاري ومسلم ـ كما هي عادته في المستدرك ـ عن معقل بن يسار عن رسول الله صلى الله عليه وآله اعملوا بكتاب الله فما اشتبه عليكم فاسألوا عنه أهل العلم يخبروكم.

والذي يشتبه عليهم هو المتشابه.

وأخرج أحمد وأبو يعلى في مسنديهما، والبيهقي في شعبه، والحاكم في مستدركه، وأبو نعيم في الحلية، وسعيد بن منصور في سننه، وإبن السكن عن الأخضر الأنصاري، والديلمي عن أبي ذر جميعاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله أن علياً يقاتل على تأويل القرآن كما قاتل هو صلى الله عليه وآله على تنزيله.

ومفاد الحديث أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان عالماً بتأويل القرآن على حقيقته فهو يقاتل دفاعاً عنه وتثبيتاً لحقائقه في الدين وأساسياته، كما قاتل رسول الله صلى الله عليه وآله دفاعاً عن تنزيله.

وفي تفسير محمد عبده رجّح أن تكون الواو في: ﴿والراسخون﴾، عطف على لفظ الجلالة، ثمّ قال: وليكن كذلك، تفسير المنار. هذه جملة من الأحاديث و النصوص أوردناها في الدليل النقلي، فتدبّر.

وأما الدليل الثاني هو العقل:

فإنّ دلالته تتمَ كالآتي: نقول إنّ المتشابه الذي يتبعه ويطلبه الزائغون ــ عن الحق ابتغاء الفتنة في أمر الدين ونظام الملة وأحكام الشريعة ــ هو في القرآن كثير. وممّا لا يصحّ في العقل أنّه مع هذه الكثرة أن يحرمَ اللهُ به رسولَهَ الهادي وأمناءَه على الوحي، وعلماءَ الأمّة. من تأويله والعلم به، وإذا كان هؤلاء لا يعلمونه فيكون القسم الكبير من القرآن الكريم لا فائدة في تنزيله للبشر مطلقاً حتّى الرسول الأكرم ولا أثر له إلاّ صدى ألفاظه وسواد حروفه.

وفي هذا البحث من الدليل العقلي تعقيبات نوردها على قول العلامة رحمه الله:

التعقيب الأول

لقد أشكل العلامة الطباطبائي رحمه الله في كون الواو من: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، واو عطف بل ذهب إلى أنها واو الإستئناف ودليله في ذلك أن الراسخين في العلم لو كانوا يعلمون التأويل لكان رسول الله صلى الله عليه وآله منهم: (وهو أفضلهم وكيف يتصور أن ينزل القرآن على قلبه وهو لا يدري ما أريد به، ومن دأب القرآن إذا ذكر الأمة أو وصف أمر جماعة وفيهم

رسول‌الله‌ﷺ أن يفرده بالذكر أوّلاً ويميّزه بالشخص تشريفاً له وتعظيماً لأمره..).[١]

أقول: ما أشارإليه‌رحمه الله في هذا المقطع من كلامه فيه عدة نكات لابدّ من الإلتفات إليها:

أوّلاً: كون الواو في ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ عاطفة أم للإستئناف قد تمّ الكلام عليه بصورة مستوفاة فيما تقدم.

ثانياً: إنّ الراسخين في العلم لو كانوا يعلمون بالتأويل لكان الرسول منهم وهو أفضلهم..! وقد أثبتنا أنّ الراسخين يعلمون، وهم المعصومون من أهل بيته‌عليهم السلام والرسول خارج عن هذه الدائرة لسببين: السبب الأول هو الذي نزل عليه الكتاب، ومعرفته به لا بدّ أن يكون قبل معرفة أهل البيت، فيكون النّبي‌ﷺ ـ من باب أولى ـ هو أعلم بالتأويل من غيره وأفضلهم.

و السبب الثاني أنه‌ﷺ هو الذي علّم أهل بيته وأطلعهم على أسرار القرآن وخزائن علم النبوة، وهو الذي ورّثهم علمه ومخزون الوحي، لذلك كان‌ﷺ في دائرة أوسع من دائرة ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وعليه فإن ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، طائفة مخصوصة بأعيانهم غير الرسول‌ﷺ وليست هناك ملازمة في كون الرسول من أولئك الراسخين التي أشارت إليه الآية الكريمة كما عرفت، وأنّ منزلة الرسول هي أعلى رتبة من الراسخين وهي رتبة النبوة والاصطفاء والإختيار، وهو حبيب‌الله، بل هو قاب قوسين أو أدنى دنوّاً واقتراباً، وصاحب الرسالة لا يقاس به أحد من البشر.

ثالثاً: أما قوله‌رحمه الله ومن دأب القرآن إذا ذكر الأمة أو وصف أمر جماعة وفيهم رسول‌الله‌ﷺ أن يفرده بالذكر أوّلاً ويميّزه بالشخص تشريفاً له.

أقول: هذه العبارة لم تكن دليلاً للعلامة‌رحمه الله بقدر ما هي عليه وهي خير دليل لردّ كلامه السابق وذلك من عدة جهات:

الجهة الأولى: أن القرآن الكريم قد أشار إلى النّبي‌ﷺ في الآية السابعة من آل عمران بالضمير المخاطب المتصل فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، فقد خصّه سبحانه بهذا الموقع دون سائر الناس.

---

١. الميزان ٣: ٢٨.

وبهذا المقدار يكفي أن يكون تشريفاً لمقام النّبيّ صلى الله عليه وآله وفيه بطلان ما تقدم من كلام العلامة في عدّة مواطن، منها قوله: «وقد ميّزه بالشخص تشريفاً كما أفرده بالذكر أوّلاً» ثم انتصر لرأيه بقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَزلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.[2]

وقوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ جَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾.[3]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾.[4]

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لاَ يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾.[5]

هذه الموارد التي ذكرها العلامة لو أجلت النظر فيها وتدبّرت معانيها لاتضحت لك أنّ الرسول والمؤمنين ـ الذين ورد ذكرهم بعطف كما لاحظت ـ يشتركون في الآية الأولى بصفة الإيمان؛ الإيمان بما أُنزل أو الإيمان بالله.

والآية الثانية: إنّ الرسول والمؤمنين نصيبهم من الله ما أنزل عليهم من السكينة.

والآية الثالثة: إنّ الرسول والذين آمنوا معه يشتركون في صفة الجهاد بالمال والنفس.

والآية الرابعة: إنّ النبيّ والذين آمنوا هم أولى الناس بإبراهيم لأنهم اتّبعوه في التسمية ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً﴾.[6]

والآية الخامسة: إنّ النبيّ والذين آمنوا معه يشتركون في عدّة صفات منها أن الله لا يخزيهم وأن نورهم يسعى بين أيديهم.

إذا عرفنا هذا التفصيل نقول: أولاً: أما بالنسبة إلى الآية الكريمة (٧ من آل عمران) فالأمر ليس كالآيات المتقدّمة الحاكية عن الصفات المشتركة بين النّبيّ وبين المؤمنين (حتى يُفرد للنبي ذكراً أوّلاً ثم يميزه بالشخص تشريفاً له..)

---

١. البقرة: ٢٨٥.

٢. التوبة: ٢٦.

٣. التوبة: ٨٨.

٤. عمران: ٦٨.

٥. التحريم: ٨.

٦. آل عمران: ٦٧.

ثانياً: إنّ الآية الكريمة هنا في صدد تصنيف الآيات الواردة في القرآن من جهة، وتصنيف الناس وفقاً لتلك الآيات ـ المحكمة والمتشابهة ـ من جهة أخرى، وهذا يعني أنّ الناس بين مذعنٍ كلّ الإذعان لما في القرآن الكريم من المحكم والمتشابه والتسليم بكلّ معنى الكلمة لله سبحانه وأنّ الجميع منه عزّوجلّ لذا قالوا: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، ولهذا آمنوا به دون أيّ ترديد أو شكّ، وهذه الطائفة الممدوحة هم: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، وعليه إنّ هذه الطائفة ليست هي من سائر الناس بل هي عدة؛ علّمهم النبيّ التأويل فيما بعد.

وبين زائغ يتصيّد المتشابه من الآيات طلباً للفتنة وسعياً لتأويل المتشابه بما يوافق هواه ليضلّ به الناس، وهذه هي الطائفة الثانية من الناس الذين ذمّتهم آيات في مواطن من القرآن الكريم كقوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾.[1]

فإذا كانت الآية الكريمة من سورة آل عمران في صدد بيان أقسام وأصناف الناس، وموقف كل صنف ومعتقده من الآيات التي فيها المحكم والمتشابه فأيّ عذر يمكن أن نجاري به العلامة في إعتراضه ذاك؟! وهل لما أشكله تخريج آخر غير الذي ذكره وقد عرفت وهنه وضعفه كما تقدم من الأدلة!

ولو تنزّلنا إلى ما يذهب إليه العلاّمة، فنقول له أن ما أفرده الله في ذكر نبيّه في صدر الآية فيه الكفاية حيث قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ﴾.[2]

وعليه الآية المذكورة في سورة آل عمران لا يمكن إدراجها مع الآيات الخمسة المشار إليها في كلّ من سورة البقرة ٢٨٥، والتوبة (٢٦، ٨٨)، وآل عمران ٦٨، والتحريم ٨، وما شابهها من الآيات، فتدبّر.

---

١. سورة الأعراف: ٥٣.

٢. لقد ذيّل كلامه الذي نقلناه فيما تقدم بهذه العبارة:
وإن أمكن أن يقال: إن قوله في صدر الآية... يدلّ على كون النبيّ عالماً بالكتاب فلا حاجة إلى ذكرها. الميزان ٣: ٢٨.

الجهة الثانية: في الآية الكريمة استثناء وأداته (إلا) والمستثنى (الله والراسخون) فإذا وقفنا عند لفظ الجلالة فهذا يعني عدم استيفاء الاستثناء حقّه. والاستثناء ـ بحسب اصطلاح النحويّين ـ استثناء مفرّغ أيّ لم يشتغل العامل قبل (إلاّ) بما يطلبه بل تفرّغ إلى ما بعده لذا كان المستثنى (الله والراسخون) مرفوعان، فإذا جعلنا الواو حرف عطف فهذا يعني قد استوفى الاستثناء حقّه بإدخال العلماء فيه؛ وهم الراسخون في العلم، وهم الذين لهم مزيّة العلم بالتأويل ـ تأويل القرآن ـ ولهم معرفة مداخله ومخارجه ومسالكه و... وينبغي أن يكون كذلك.[1]

وإذا جعلنا الواو للإستئناف فهذا يعني إنتقاص من العلماء، وعدم إنزالهم المنزلة التي خصّهم الله بها، وحطّهم عن مرتبة قد استحقّوا الإيفاء عليها؛ لأنّ الله سبحانه قد أعطاهم من العلم والفهم ما يفتتحون به المبهم ويكشفون دياجير الظلم، فهم السّرج المضيئة، وهم الأعلام اللائحة، وهم السبيل إلى الله، فلا معنى إذن لحجبهم عن هذه المنزلة والإحجام عن إيصالهم إلى تلك الرتبة.

التعقيب الثاني

ممّا يثير العجب أن العلامة رحمه الله بين أن ينفي العلم ـ بالتأويل ـ عن الراسخين في العلم في هذه الآية وبين أن يجوّز العلم ـ بتأويله ـ لغيره تعالى:

فقد قال في (ص٢٧): «وظاهرالحصر كون العلم بالتأويل مقصوراً عليه سبحانه».

وفي (ص ٢٨) قال رحمه الله: «فالظاهر أنّ العلم بالتأويل مقصور في الآية عليه تعالى ولا ينافي ورود الاستثناء عليه كما أنّ الآيات دالة على إنحصار علم الغيب عليه تعالى مع ورود الإستثناء عليه...».

وفي (ص٥١) قال رحمه الله: «والذي ينبغي أن يقال: أن القرآن يدلّ على جواز العلم بتأويله لغيره تعالى، وأما هذه الآية فلا دلالة لها على ذلك».

---

١. هذا مرويّ عن إبن عباس ومجاهد والربيع بن أنس؛ أنظر حقائق التأويل: ص ٨؛ وقد ذكر الزمخشري رأيه مؤيّداً فيه ما تقدم أيّ جعل الواو عاطفة، فقال في الآية: ﴿**وما يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم**﴾، أيّ لا يهتدي إلى تأويله الحقّ الذي يجب أن يعمل عليه إلا الله وعباده الذين رسخوا في العلم، أي: ثبتوا فيه وتمكّنوا وعضّوا فيه بضرس قاطع، ثمّ ذكر وجهاً ثانياً وقال: والأوّل هو الوجه، و(يقولون) كلام مستأنف موضح لحال الراسخين بمعنى هؤلاء العالمون بالتأويل؛ الكشاف ١: ٤١٣.

وفي (ص٥٥) قال رحمه الله: «ولكن ينبغي أن لا تشتبه النتيجة التي ينتجها هذا البيان، فإن المقدار الثابت بذلك أنّ المطهّرين يعلمون بالتأويل، ولازم تطهيرهم أنّ يكونوا راسخين في علومهم لما أنّ تطهير قلوبهم منسوب إلى الله وهو تعالى سبب غير مغلوب، لا أنّ الراسخين في العلم يعلمونه بما أنهّم راسخون في العلم أيّ أنّ الرسوخ في العلم سبب العلم بالتأويل، فإنّ الآية لا تثبت ذلك بل ربما لاح من سياقها جهلهم بالتأويل..».

وفي (ص٦٤) قال: «الثالث: إنّ التأويل يمكن أن يعلمه المطهّرون وهم الراسخون في العلم...».

وقال أيضاً: «وكذلك إنّ الآية أعني قوله تعالى: ﴿لاَ يَمَسُّهُ إِلاَ الْمُطَهَّرُونَ﴾، لم تثبت للمطهرين إلاّ مس الكتاب في الجملة، وأما أنّهم يعلمون كلّ التأويل ولا يجهلون شيئاً منه ولا في وقت فهي ساكتة عن ذلك، ولو ثبت لثبت لدليل منفصل».[1]

من مجموع هذه النصوص نستخلص أولاً: إنّ العلامة لا يقول ـ في هذه الآية من آل‌عمران ـ أنّ الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه.

ثانياً: لم يصرّح (هؤلاء الراسخون) مَنْ هم...؟

ثالثاً: يفصل بين الراسخين في العلم وبين من يعلم تأويله كما أشار بصريح عبارته في (ص٥٥) فقال: وقد وصف الله تعالى رجالاً من أهل الكتاب برسوخ العلم ومدحهم بذلك، وشكرهم على الإيمان والعمل الصالح في قوله: ﴿لـكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾،[2] ولم يثبت مع ذلك كونهم عالمين بتأويل الكتاب.

رابعاً: يحاول رحمه الله أن يفصل بين صفة التطهير وصفة العالم فيقول:

«وهؤلاء قوم نزلت الطهارة في قلوبهم، وليس ينزلها إلاّ الله سبحانه وتعالى، وليست الطهارة إلاّ زوال الرجس من القلب، وليس القلب من الإنسان إلاّ ما يدرك به ويريد به،

---

١. الميزان ٣: ٥٥.

٢. النساء: ١٦٢.

فطهارة القلب طهارة نفس الإنسان في إعتقادها وإرادتها وزوال الرجس عن هاتين الجهتين، ويرجع إلى ثبات القلب فيما اعتقده من المعارف الحقة من غير ميلان إلى الشك ولوثان بين الحق والباطل، وثباته على لوازم ما علمه من الحق من غير تمائل إلى إتّباع الهوى ونقض ميثاق العلم، وهذا هو الرسوخ في العلم، فإنّ الله سبحانه ما وصف الراسخين في العلم إلاّ بأنّهم مهديّون ثابتون على ما عملوا، غير زائغة قلوبهم إلى إبتغاء الفتنة فقد ظهر أنّ هؤلاء المطهّرين راسخون في العلم هذا».

ثمّ يقول في نفس الصفحة: «وكذلك إنّ الآية أعني قوله تعالى: ﴿لا يَمَسُّهُ إلاّ الْمُطَهَّرُونَ﴾، لم تثبت للمطهّرين إلاّ مسّ الكتاب في الجملة، وأمّا أنّهم يعلمون كلّ التأويل ولا يجهلون شيئاً منه ولا في وقت فهي ساكتة عن ذلك، ولو ثبت لثبت بدليل منفصل».[1]

لا يخلو كلامه (أعلى الله مقامه) من الارتباك والترديد في إعطاء النتيجة.

وأكثر ارتباكاً وخلطاً ما ذكره في (ص ٦٩) في تعقيبه على كلام الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام فقال: «قوله عليه السلام «واعلم يا عبد الله أنّ الراسخين في العلم.. الخ» ظاهر في أنّه عليه السلام أخذ الواو في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ﴾، للإستئناف دون العطف كما استظهرناه من الآية ومقتضى ذلك أنّ ظهور الآية لا يساعد على كون الراسخين في العلم عالمين بتأويله...».

أقول: كلامه رحمه الله أجنبي عن الرواية وبعيد عن كلام الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، لأنّ الإمام عليه السلام في صدد بيان عجز الإنسان عن إدراك الأمور الغيبيّة، وأنّ السائل طلب منه عليه السلام أن يصف له الرب حتى يزداد له حباً، فغضب الإمام ونصحه عن عدم الإقتحام في مثل تلك الأمور... فأيّ ربط بين هذا المعنى وبين علمهم بتأويل المتشابه؟ أليس هذا ضرب من الخلط؟! وإليك نص حديث الإمام عليه السلام الذي رواه العيّاشي عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليه السلام: «أن رجلاً قال لأمير المؤمنين عليه السلام: هل تصف لنا ربّنا نزداد له حبّاً ومعرفة؟ فغضب وخطب الناس فقال فيما قال: عليك يا عبد الله بما دلّك عليه القرآن من صفته، وتقدّمك فيه الرسول من معرفته، واستضيء من نور هدايته فإنّما هي نعمة وحكمة أُوتيتها، فخذ ما أوتيت

---

١. الميزان ٣: ٥٥.

وكن من الشاكرين، وما كلّفك الشيطان عليه ممّا ليس عليك في الكتاب فرضه، ولا في سنّة الرسول وأئمّة الهدى أمره، فكلِ علمه إلى الله، ولا تقدّر عظمة الله، واعلم يا عبدالله أنّ الراسخين في العلم هم الذين اغناهم الله عن الإقتحام في السدد المضروبة دون الغيوب، فلزموا الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فقالوا: آمنّا به كلٌ من عند ربّنا، وقد مدح الله إعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً وسمّى تركهم التعمّق فيما لم يكلّفهم البحث عنه منهم رسوخاً فإقتصر على ذلك، ولا تقدّر عظمة الله على قدر عقلك فتكون من الهالكين». إنتهى كلامه عليه السلام.[1]

فلم تر في كلامه عليه السلام أيّ إشارة إلى المحكم والمتشابه والتأويل وغير ذلك من المطالب التي عنتها الآية الشريفة من آل عمران! فكيف نحمّل كلامه عليه السلام فوق ما يحتمل حتى نستظهر فيه معنى جديداً للآية والإمام عليه السلام ليس في صدد بيان الآية الكريمة؟ وكيف ننسب إلى الإمام (أنه أخذ الواو في قوله تعالى: ﴿والراسخون في العلم يقولون﴾ للإستئناف دون العطف في حين أنّ الإمام لم يستخدم هذا الفعل (يقولون) في كلامه؟ أعد النظر في النص الوارد عن الإمام عليه السلام ماذا يقول!

قال عليه السلام: «واعلم يا عبد الله أنّ الراسخين في العلم هم الذين اغناهم الله عن الإقتحام في السدد المضروبة دون الغيوب فلزموا الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فقالوا: آمنّا به كلٌ من عند ربّنا، وقد مدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً».

لقد ظنّ العلاّمة رحمه الله أنّ الإمام في صدد بيان مطالب الآية الشريفة وقد غفل عن أصل الموضوع وهو كون السائل يسأل عن صفة الرب!

وهل أحد يعرف كنه الرب..؟

وهل كان جواب الإمام غير ذاك الجواب الذي فيه ردع السائل؟

وهل كان السائل يبحث عن علم الإمام؟

أم أنّه كان يسأل عن علم الراسخين؟

---

١. البرهان، تفسير العياشي.

أم أنّه كان يبحث عن المحكم والمتشابه؟

أم أنّه كان يسترشد إلى معرفة أهل الزيغ وأهل الفتنة؟

أم أنّه كان يبتغي معرفة أهل التأويل؟

ماذا نفهم من عبارات الإمام عليه السلام المتقدّمة؟

ماذا نفهم من قوله عليه السلام: «أنّ الراسخين في العلم هم الذين أغناهم الله عن الإقتحام في السدد المضروبة دون الغيوب»؟

ماذا نفهم من قوله عليه السلام: «فلزموا الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب»؟

ماذا نفهم من قوله عليه السلام: «وقد مدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما»؟

ماذا نفهم من قوله عليه السلام: «وسمّى تركهم التعمق فيما لم يكلّفهم البحث عنه منهم رسوخاً»؟

فما هي السدد المضروبة من الغيوب؟

وما هو الغيب المحجوب؟

وما هو العجز الذي إعترفوا به؟

وما الذي لم يحيطوا به علماً؟

وهل كلّ ما ذُكر ينطبق على أمر المحكم والمتشابه وتأويلها؟! افهم وتدبّر، والله العالم.

وجواب كلّ ما يتساءل عنه هنا تجده في جملة ما ذكرناه من الأحاديث المتقدّمة البالغة أكثر من أربعين رواية والتي كانت في صدد بيان الراسخين في العلم، وكونهم هم أهل البيت عليهم السلام، وهم المعنيّون في الآية الشريفة من سورة آل عمران.

التعقيب الثالث

ممّا ذهب إليه العلامة رحمه الله وهو كون الواو استئنافية قال: لو كانت للعطف الدال على التشريك لكان الرسول من أفضل الراسخين فكان من حقّه أن يفرد بالذكر.. ثم ذكر آيات تقدم ذكرها.

وقد بيّنا أن هذا الرأي ليس بجديد بل هو مصادرة لرأي من سبق كالرازي ـ والسيوطي[١] ـ إذ ذكره في تفسيره الكبير وأكّد هناك أنّ التأويل مقصور عليه سبحانه وقد فنّدنا هذا الرأي وأثبتنا خطأه بالدليل العقلي والنقلي بقسميه؛ من منقولات العامة والخاصة.

ثمّ نقول للسيّد رحمه الله إنّ في القرآن كثيراً من العمومات شملت النّبيّ وغيره من الناس ولم يفرد له بذكر منفصل كقوله تعالى: ﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَانفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُواْ جَمِيعاً﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.[٤]

وقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾.[٥]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾.[٦]

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾.[٧]

---

١. جاء في الاتقان للسيوطي: «وأمّا الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم خصوصاً أهل السنّة، فذهبوا إلى الثاني، أي القول بأنّ التأويل لا يعلمه إلا الله» الاتقان ٢: ٣ وما بعدها؛ وقد أثبت إبن تيمية خطأ هذا القول بل وأثبت عكسه إذ قال: إن السلف قد كان كثير منهم يعلمون تأويله منهم مجاهد والربيع بن أنس ومحمد بن جعفر بن الزبير وابن عباس.. الخ.

٢. آل عمران: ١٤٠

٣. النساء: ٧١.

٤. الحديد: ١٢.

٥. آل عمران: ١٨.

٦. فصلت: ٣٠.

٧. الحج: ٣٥.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.[١]

وقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.[٢]

وقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَءَاتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾.[٣]

التعقيب الرابع

ممّا يستدل على أنّ الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه إجماع السلف ـ إلاّ ما شذّ منهم ـ على ذلك ونحن ننقل بعض الفقرات من عبائر أصحاب التفسير ما تقدّم منهم:

عن مجاهد قال: «عرضت المصحف على إبن عباس من أوّله إلى آخره أقفه عند كل آية واسأله عنها، وكان يقول ـ إبن عباس ـ أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله».[٤]

وقال الطبري: «إنّ جميع ما أنزل الله من أيّ القرآن على رسوله﴿صلى الله عليه وآله﴾ فإنّما أنزله عليه بياناً له ولأمته وهدى للعالمين، وغير جائز أن يكون فيه ما لا حاجة بهم إليه، ولا أن يكون فيه ما بهم إليه الحاجة، ثمّ لا يكون لهم إلى علم تأويله سبيل».[٥]

وفي تفسير محمد عبده، نقلاً عن إبن تيميّة قال: «إنّ السلف قد قال كثير منهم أنّهم يعلمون تأويله منهم مجاهد مع جلالة قدره، والربيع بن أنس، ومحمد بن جعفر بن الزبير، وإبن عباس...».

ثمّ عقّب على هذا القول فقال: «وأما قول القائل: إنّ أكثر السلف على أنّ التأويل لا يعلمه إلا الله قول بلا علم فإنّه لم يثبت عن أحد من الصحابة أنّه قال: إنّ الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه. بل الثابت عن الصحابة أنّ المتشابه يعلمه الراسخون».[٦]

---

١ الحج: ٣٨

٢. سورة الحج: ٣٩.

٣. سورة الحج: ٤١.

٤. الدر المنثور.

٥. جامع البيان ٣: ١١٦.

٦. تفسير المنار ٣: ١٧٥.

أمّا أبوالحسن الأشعري وأبو إسحاق الشيرازي، فهما يذهبان مذهب السلف وقال الأخير: «ليس شيء استأثر الله بعلمه، بل وقف العلماء عليه لأنّ الله تعالى أورد هذا مدحاً للعلماء، فلو كانوا لا يعرفون معناه لشاركوا العامّة».[١]

بهذا المقدار نكتفي في تعليقنا على مزاعم العلاّمة رحمه الله، ثمّ دعنا نتابع تفسير الكلمات الأخرى من الآية الكريمة:

قوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.[٢] هُنّ: ضمير لجمعٍ.

آيات: جمع آية؛ وآية مؤنّثة اللفظ.

أُمّ: اسم لواحد؛ صفة ـ خبر ـ لضمير الجمع (هُنّ).[٣]

وربّ سائل يقول كيف جعل الواحد صفة للجمع؟

تقريب الجواب: إنّ الآيات بانضمام بعضها إلى البعض الآخر وباتحادها في النزول وأنّ مصدر نزولها هو الله سبحانه وتعالى، فكان إطلاق الجمع النازل من تلك الآيات المحكمات قرآناً، وذلك الجمع هو أُمّ للكتاب، وهذا يعني أن ليست كلّ آية بانفرادها أمّاً.

ولـمّا كان الأمر كذلك جاز وصف الجمع بالواحد لتعلّق البعض بالبعض الآخر فهو أذاً بمنزلة الواحد.

لهذا لم يستعمل في النص القرآني لفظة أُمّهات إخباراً عن الضمير (هنّ) لاحتمال أن يذهب بالسامع إلى كلّ آية من الآيات هي أمّ لجميع الكتاب. فكان الإستعمال كما جاء تلافياً لذاك الظن وحذراً من الوقوع بما يخالف القصد.

ثمّ كون تلك الآيات المحكمات بمجموعها يعلم ما هو المقصود من الكتاب من بيان أصول العبادات والأحكام ومعالم الدين وهذا القصد لا يعلم من آية واحد لذا كان العلم بتلك المعالم من الرجوع إلى جميع الآيات المحكمات.

---

١. مباحث في علوم القرآن: ص ٢٨٢.

٢. آل عمران: ٧.

٣. لا نعني بالصفة النعت على مصطلح النحاة، بل هو مطلق الإخبار عن المبتدأ.

وعليه يتعيّن أنّ الأُمّ: هو الأصل الذي يُرجع إليه ويعتمد عليه. وهكذا بالنسبة للإنسان فأمّه أصله، وهكذا مكّة هي أُمّ القرى لأنها كعبة القرى وإليها يتوجّه الناس من كلّ صوب وحدب، أيّ من مختلف المدن والبلدان وربّما أصبحت أمّ القرى إمّا لقدمها في جزيرة العرب وإمّا لإعتصام أهل مَنْ حولها من القرى بها.

وهكذا الفاتحة أمّ الكتاب لما يفتتح بها الصلاة؛ وكما جاء في الأخبار المأثورة عن المعصومين الأطهار «لا صلاة بغير فاتحة الكتاب»، فهي أصل يبنى عليها غيرها من القرآن في الصلاة.

وفي الصحاح في مادّة (أمم) قال: وقوله تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾،[1] ولم يقل أمهات لأنّه على الحكاية، كما يقول الرجل: ليس لي معين فتقول: نحن معينك، فتحكيه انتهى.

أقول: وهذا شبيه من يقول: مالي أنصار، فيجيبه الواحد: أنا أنصارك.

---

١. آل عمران: ٧.

الفصل الخامس

هل للمحكم مزيّة على المتشابه؟



هل للمحكم مزية...؟

بعدما عرفنا أنّ في القرآن آيات محكمات وأُخر متشابهات، فقد وصف سبحانه وتعالى الآيات المحكمة بقوله: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾،[1] أيَ الأصل الذي يكون المرجع إليه، سواء أمكن تأويل المتشابه حتى يوافق المحكم أو لم يمكن تأويله لكن يمكن ردّه إلى المحكم من الآيات.

كقوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾،[2] فمحكمه الذي يجب ردّه إليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.[3]

ومثله في المتشابه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾[4] لابدّ من ردّه إلى محكمه وهو قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ﴾.[5]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾.[6]

لغرض أن يكون المحكم الأصل في الإستنباط وإليه يرجع المتشابه لابدّ من عدّة أمور منها:

---

١. آل عمران: ٧.

٢. طه: ٣٩.

٣. الشورى: ١١.

٤. الزمر: ٥٣.

٥. طه: ٨٢.

٦. النساء: ١١٦.

أولاً: أن تكون اللغةُ الأساسَ في فهم الظاهر.

ثانياً: معرفة التركيب اللغوي وسياق الآية الكلي.

ثالثاً: الفحص عن سبب نزول المتشابه.

رابعاً: معرفة تفسير الآيات المتشابهة بعد عرضها على المحكم.

خامساً: التدبّر والتفكر في معاني الآيات المتشابه وإلتماس تفسيرها من روايات أهل البيت عليهم السلام لأنّهم هم الراسخون في العلم.

وتفصيل ذلك يتم في عدّةِ أُمورٍ:

الأمر الأول

ممّا لا شكّ فيه أنّ القرآن نزل بلغة العرب الفصحاء، وهم في البلاغة والأدب في القمة العالية والمنزلة الرفيعة، فجاء القرآن ليتحدّى تلك الأمة ومَنْ تابعها فأثبت عجزهم وأبطل عنادهم فاذعنوا له خاضعين، وسلَموا له طائعين غير منكرين لما فيه من البيان والإعجاز والبلاغة، فلا يجاريه كلام ولا يضاهيه براعة شاعر أو أديب.

فالصدر الأول الذي نزل القرآن بلغتهم الفصيحة كانوا أقرب إلى فهم النصوص القرآنية، وهذا الفهم أصبح ينحسر كلّما ابتعدت النفوس عن المنهل العذب ـ بتوالي السنين ـ والمعين الصافي المتمثل بالنفوس الطاهرة من أهل بيت العصمة عليهم السلام.

فلا غرابة إذا احتاجت الأمة إلى من يعلّمها المحكم والمتشابه، وأن يعلّمها التفسير والتأويل، وأن يعلّمها الناسخ والمنسوخ... فالنصَ القرآني في بعض موارده أصبح ذريعة ومطمحاً لذوي الآراء السقيمة والأفكار من أهل البدع وأرباب النحل والأهواء.

فقد اختلف هؤلاء ـ أهل الزيغ والباطل ـ ولم يدركوا معاني القرآن لميولهم عن فصاحة اللغة وسلامة الذوق العربي إلى التخرصات الكلامية والبدع الفلسفية، فتركوا النص الجلي وتمسّكوا بمنطوق العقل السقيم وهم يتخبّطون بالغي والجهل، حتى صنعوا لهم تلك المذاهب، واختلقوا تلك التفاسير، فبرز منها ما برز من عقائد، كالمرجئة والقدرية والجبرية والمجسّمة و...، خلّفوا وراءَهم جملة من المقولات والترهات ما أنزل الله بها من سلطان.

ولو تحرّيت الأسباب والعلل لوجدتها عديدة كثيرة، وفي مقدمتها عامل اللغة إذْ هي أحد تلك الأسباب الرئيسية التي أدّت إلى الإختلاف في فهم ظاهر النص القرآني، إضافة إلى ما هناك من عوامل سياسية قد لعبت دوراً كبيراً في ظهور العقائد المنحرفة والتأويلات الباطلة.

فقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، و ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾، و﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، و﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، وغير ذلك من الآيات المتشابهة إنّما يعرف ذلك بعد عرضها على المحكم من جهة، وبعد معرفة اللغة من جهة أخرى.

إذن لابد من معرفة العرش ومعنى الاستواء، واليد والفوقية، والوجه والسمت، معرفة كاملة بالاستعانة في فهم اللغة فهماً حقيقياً وما يخلص منها من المجاز والكناية والاستعارة والتورية وغير ذلك من الأوجه البلاغية حيث أن اللغة تنصرف إلى مدلولات ومعانٍ عديدة تابعة للأغراض والمقاصد لا لما وضع لها في الأصل المجرد.

فإذا عرفنا هذا القدر، إتّضح لنا معنى الاستواء في الآية، و أنّه لا يصدق عليه سبحانه هيأة الاستواء عند الآدميين كما لا يصدق عليه شيء من صفات المخلوقين الأخرى، فهو سبحانه لا يحدّ بزمان ولا مكان ولا هيأة ولا قرب ولا بعد في مسافة بل هو: ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾، وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وهو ﴿اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

الأمر الثاني

إنّ معرفة التركيب اللغوي والسياق الكلّي للآية أمر لابدّ منه، وإلا لتعذّر تشخيص المتشابه، ولضلّت فيه الإفهام وتاهت به العقول. فقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.[2]

لا شكّ أنّ الآية الأولى تصف معتقد اليهود (لعنهم الله وخذلهم) فقد ذهبوا في اليد إلى

---

١. المائدة: ٦٤.

٢. الفتح: ١٠.

الجارحة، كما أنّهم إنتقصوا من قدرة الله سبحانه فجاء الرد عليهم فقال جلّ اسمه: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾.

فالتركيب اللغوي يشعرك جيداً ماذا كانت تبغي اليهود في مقولتهم تلك، وأنّ الآية تعلن بصراحة كاملة ذمّها لليهود، وهذا الذم لا يتصوّر بحقّهم إلاّ لكونهم نسبوا النقص لساحة الجليل جلّ وعلا من جهات عدّة:

أولاً: أنّهم نسبوا اليد الجارحة لله.

وثانياً: أنّهم نسبوا العجز في القدرة.

وثالثاً: في محكي قولهم أنّهم شبّهوا الخالق بالمخلوق.

وكلّ ذلك لا يصحّ على الله جلّ شأنه وعلا علواً كبيرا فهو: ﴿ليس كمثله شيء﴾، وقد نزّه سبحانه ذاته وأخرجها من ذوات المخلوقين، لأنّ الشبه بين الشيئين أن يكونا متّحدين أمّا في الماهية أو في الصفات أو في الأعراض، وحيث أنّه تبارك وتعالى لا ماهية له زائدة على وجوده، ولا صفات له زائدة على ذاته، ولا عوارض تعرض عليه.

وممّن أخطأ في التقدير المتكلّمون حيث منعوا إطلاق الشيء والوجود وأشباههما عليه تعالى، محتجّين بأنّه إنْ كان شيئاً فهو يشارك الأشياء في مفهوم الشيئية، وإن كان موجوداً فهو يشارك الموجودات في معنى الوجودية، وكذا إن كان ذا حقيقة فهو مشارك للحقائق في مفهوم الحقيقة، وبهذا يلزم من قولهم بأنّ خالق الأشياء لا هو شيء ولا موجود ولا ذو حقيقة ولا ذو هوية، تعالى الله عمّا يصفون.

ثمّ تجد من بين المتكلّمين من أنكر جميع الصفات الواجبة للألوهية فأدّى به إلى التعطيل، لأنّه يفضي ذلك الإنكار إلى نفي الألوهية الناتجة عن سلب الصفات الثبوتية، ومنهم مَنْ أثبت الصفات القديمة الزائدة على الذات ممّا أدّى به إلى التشبيه الذي يستلزم تعدد المبدأ.

وقد سُئل الإمام الباقر عليه السلام أيجوز أن يقال إنّ الله شيء قال: «نعم يُخرجه عن الحدّين حدّ التعطيل وحد التشبيه».[١]

---

١. الكافي ١: ٨٢ ـ ٨٥، باب إطلاق القول بأنه شيء، ح ٢، ٧.

وعن الإمام الصادقعليه السلام: «إنّ الله خلو من خلقه وخلقه خلو منه، وكلّ ما وقع عليه اسم شيء ما خلا الله فهو مخلوق والله خالق كلّ شيء، تبارك الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير».[1]

فقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ﴾ أكّد الإمام تلك الشيئية، وهذا يعني نفي المثل، ويوضح ذلك قولهعليه السلام (إنّ الله خلو من خلقه) أن لا مشاركة بينه وبين غيره، لا في الماهية ولا في جزء منها، فلا يمكن أن يكون له مثل، إذ المماثلة هي المشاركة في تمام الماهية، كما أن المجانسة هي المشاركة في بعض الماهية، و أنّ المشابهة هي المشاركة في صفة ثابتة زائدة على الذات، والباري سبحانه حيث لا ماهية له غير الحقيقة الواجبة، فلا مماثل له ولا مجانس، ولا شبيه له. وبالتالي إنفرد سبحانه بكيفيّة لا يستحقّها غيره، وهذه الكيفية نعني بها إثبات جميع صفاته الكمالية له، وهي عين ذاته، لا يشاركه فيها أحد ولا يحاط بها ولا يعلمها غيره. وقولنا بهذا ينفي عنه سبحانه التعطيل والتشبيه والله ولي السداد.

الأمر الثالث

الفحص عن سبب نزول الآية المتشابهة.

إنّ جملة من الآيات المتشابهة ـ لإحتمال تفسيرها بعدة معانٍ ـ كانت سلاحاً بيد أهل الزيغ والباطل حيث تمسكوا بها (ابتغاء الفتنة) ليصرفوا الناس بها عن الحق ويضلّوا بها آخرين، وعملهم في ذلك إنّهم يصوّرون أنفسهم يحتجّون بالقرآن، والعوام من الناس قد يصدّقهم على ذلك لأن هؤلاء العوام لا يعرفون من ظواهر القرآن وأقسام الآيات والمحكم والمتشابه منه، بل كلّه يسمّونه قرآن فمن أين لهم التمييز، وكما قيل فاقد الشيء لا يعطي؟!

أما الذين يتّبعون ما تشابه منه فهم الذين يعمدون إلى هذا الطريق حتى يصرفوا الحق عن مكانه ويلقوا الشُبه والضلال في نفوس غيرهم لمصالح انطوت عليها سرائرهم وأحقاد حملوها بين جوانحهم وهذا ما يصدق على النصارى الذين احتجّوا بالقرآن ـ على النّبي محمدصلى الله عليه وآله ـ وما قول الكافرين إلاّ ضلالاً.

---

١. المصدر ١: ٨٣ ح ٤.

روى الطبري بسنده عن الربيع في قوله: ﴿الم * اللّهُ لا إِلَهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ قال: «إنّ النصارى أتوا رسول الله ﷺ فخاصموه في عيسى بن مريم عليه السلام، وقالوا له: مَنْ أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان، لا إله إلا هو، لم يتّخذ صاحبة ولا ولداً، فقال لهم النّبيّ ﷺ: ألستم تعلمون أنّه لا يكون ولدٌ إلا وهو يشبه أباه؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربّنا حيّ لا يموت، وأن عيسى يأتي عليه الفناء؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كلّ شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟

قالوا: لا.

قال: ألستم تعلمون أن الله عزّوجَلّ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟

قالوا: بلى.

قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئاً إلّا ما عُلّم؟

قالوا: لا.

قال: فإنّ ربّنا صوّر عيسى في الرحم كيف يشاء، فهل تعلمون ذلك؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أنّ ربّنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب، ولا يُحدِث الحدث؟

قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أنّ عيسى حَمَلَته إمرأة كما تحمل المرأة، ثمّ وضعته كما تضع المرأة ولدَها، ثم غذي كما يُغذى الصّبيّ ثمّ كان يطعم الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟

قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم؟

قـال: فعرفـوا ثـم أبـوا إلا جحـوداً فـأنزل الله عزّوجَـلّ: ﴿الـم ❊ اللّـهُ لا إلَـهَ إلاَّ هُـوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.[١]

وهكذا إحتجّ النصارى بالقرآن على النّبيّ محمدﷺ بقوله تعالى عن عيسى: ﴿رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾،[٢] روى الطبري في ذيل الآية الكريمة: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾. عدّة أخبار وقد أشار إلى معنى التشابه فيها، قال أبو جعفر: يعني بقوله جل ثناؤه ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾، ما تشابهت ألفاظه وتصرّفت معانيه بوجوه التأويلات ليحققوا ـ بإدّعائهم الأباطيل من التأويلات في ذلك ـ ما هم عليه من الضلالة والزيغ عن محجة الحق، تلبيساً منهم بذلك على من ضعفت معرفته بوجوه تأويل ذلك وتصاريف معانيه.

ثمّ أورد عدة روايات منها: بسنده عن علي عن إبن عباس: ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ فيحملون المحكم على المتشابه، والمتشابه على المحكم، ويلبّسون، فلبّس الله عليهم.[٣]

الأمر الرابع

لقد خصّ سبحانه وتعالى أمومة الآيات بالمحكم منها فقال تعالى: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، كما جعل سبحانه (سورة الحمد) فاتحة الكتاب وأمّ الكتاب وكما جعل للقرى أمّ، فقال تعالى: ﴿مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾،[٤] وكما أشار سبحانه بأمومة اللوح المحفوظ فقال وعزّ من قائل: ﴿يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.[٥] ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[٦] إلى غير ذلك من الموارد.

فالمحكم كما عرفت من المعنى اللغوي أريد به الإحكام والإتقان وعدم وجود التشابه

---

١. تفسير الطبري ٣: ١٦٣.

٢. النساء: ١٧١.

٣. جامع البيان للطبري ٣: ١٧٧.

٤. الأنعام: ٩٢.

٥. الرعد: ٣٩.

٦. الزخرف: ٤.

فيه، والأم بحسب معناه في الأصل ما يرجع إليه الشيء، وليس هنا إلّا الآيات المردّد في تعيين معناها ألا وهي المتشابهة فترجع إليها.

فلا مناص ـ في معرفة تفسير المتشابه ـ من الرجوع إلى المحكم أيَ بمعنى عرض المتشابه المردّد بين معنى ومعنى على المحكم الممتنع عن التشابه في المراد، فقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾،[١] يشتبه المراد منه على السامع أول ما يسمعه، إذن هي من المتشابهات لعدم تعيين المراد، بل هو مردّد بين معنى ومعنى، فإذا رجع إلى قوله: تعالى ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾،[٢] علم من هذه الآية المحكمة أنّ المراد بالنظر غير النظر المادي المخصوص بالعين الباصرة، وعليه فإنّ معنى الأمومة الذي تدلّ عليه الآية: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾،[٣] يتضمّن عناية زائدة لازمة كون المحكمات مبيّنة للمتشابهات.

الأمر الخامس

أمّا التدبّر والتفكر في المعاني فهو بلحاظ حثّ القرآن عليه من جهة كما في الآية الشريفة: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾.[٤]

وقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾.[٥]

وبلحاظ الرجوع إلى أحاديث أهل البيت عليهم السلام فنحن مندوبون إلى هذا الرجوع لسلامته ونزاهته وصحة مؤدّاه، فهم السبيل إلى تعيين المعنى الحق، بل هم طريق النجاة وأعلام الهدى، وهم النجوم الذين بهم يهتدي المهتدون.

وقد أودعهم النّبي علمه وعلم من سبقه من الأنبياء والرسل فعندهم علم التفسير والتأويل، وعندهم علم المحكم والمتشابه، وهم الراسخون في العلم.

---

١. القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.

٢. الانعام: ١٠٣.

٣. آل عمران: ٧.

٤. محمد: ٢٤.

٥. النساء: ٨٢.

الخلاصة

بعد كل ما تقدم فماذا نختار؟

كلّ التفاصيل التي ذكرت يمكن تحديدها في عنوانين.

الأول: المدلول اللغوي للآية الكريمة، وهذا يحتاج إلى تفسير اللفظ وتحديد معناه اللغوي العام الذي وضع له، وهذا يتكفّل لنا بتحديد المدلول المطابقي بين اللفظ والمعنى العام الذي يفهمه كل من مارس اللغة بأساليبها البلاغية المتنوعة.

الثاني: تفسير المعنى، وهو نقله من الظهور المجرد إلى معنى خاص، وتجسيد هذا المعنى لا يتمّ بدون النظر إلى تلك الأصول من الآيات والتي خصّها الباري كونها (أم الكتاب).

وعليه فإن التشابه المعني في الآية الكريمة هو المصداق الواقعيّ الموضوعي، فمتى تجسّد عندنا ذاك المصداق وتحدّد معناه إرتفع التشابه، وصارت الآية محكمة، وهذا الإحكام قطعاً بعد أخذ الآيات الأم بنظر الإعتبار، وبمعنى آخر بعد رجوعنا إليها في تحديد المعنى المتشابه.

إذن العلاقة ـ لوحدها ـ بين اللفظ ومفهومه اللغوي سوف لا يحدّد لنا المعنى الخاص، كما أن التشابه لم ينشأ من حيث الالتباس والتردد في معاني اللفظ ومفهومه اللغوي، بل منشأه الالتباس والتردد في تجسيد الصورة الواقعية لهذا المفهوم اللغوي الخاص.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلاَئِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾.[٤]

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[٥] وغير ذلك من الآيات.

تجد أنّ لفظ العرش، وحمله، والكرسي، والاستواء، وفوقية العرش وكونه على الماء... هذه ألفاظ لها مفهومها اللغوي المعيّن لكن هذا المفهوم لا يمكن أخذه بهذه الصورة الحسّية وتلك الكيفية المادية طالما تلك المفردات نسبت إليه بإضافة أو نحوه، ومحصّل القول لابدّ من تعيين معنى آخر يبعد عن التجسيد الذي عهده الحس.

فالعرش والكرسي والاستواء لها معانٍ اختصت به سبحانه كالإستقامة والإعتدال والإحاطة والعظمة والكبرياء والعلم.

إذن العقيدة الصحيحة لابدّ أن تخلو من الأوهام والمعاني القاصرة التي تؤدّي إلى التشبيه أو التجسيم، وما العرش والكرسي والاستواء؛ إلا ألفاظ أريد بها غير مصاديقها الخارجيّة، أيّ أريد بها معانٍ تليق بساحة الجليل تبارك وتعالى؛ كالعظمة والكبرياء، فلا غرو من مخاطبة الله سبحانه عباده بخطاب فيه تعريف ذاته وصفاته بما اعتاده الناس مع ملوكهم وعظمائهم، فقد جعل الكعبة بيتاً له يطوّف الناس حوله كما يطوفون ببيوت ملوكهم، وأمر الناس بشدّ الرحال لحجّ بيته، ووضع فيه الحجر الأسود، وجعله موضعاً للتقبيل، كما يقبّل الناس أيدي ملوكهم، وجعل الحساب يوم القيامة بحضور الملائكة والنبيين والشهداء ثمّ وضع الموازين، وعلى هذا القياس أثبت لنفسه عرشاً صفته كونه على الماء وغير ذلك من الصفات التي ينزّه عن

---

١. الزمر: ٧٥.

٢. الحاقة: ١٧.

٣. البقرة: ٢٥٥.

٤. هود: ٧.

٥. طه: ٥.

التجسيم، لأنّك قد عرفت أنّه سبحانه منزّه عن الكون والمكان وغير ذلك من الصفات التي تنطبق على الآدميين، وقد أشار أهل البيت عليهم السلام إلى معاني تلك الألفاظ كما في الكافي في باب العرش والكرسي.[1]

فمثلاً فسّر الاستواء بالتدبير؛ أيّ تدبير المخلوقات وتوضيح هذا البيان في سورة يونس قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾.

ويؤيّدهُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾.[2]

ولا يخفى عليك أنّ الاستواء في اللغة له معانٍ عديدة منها:

١. الاستواء بمعنى الاستقرار والتمكن على الشيء.

٢. قصد الشيء والإقبال إليه.

٣. الاستيلاء على الشيء.

٤. الاعتدال والاستقامة، تقول سوّيت الشيء فاستوى.

٥. المساواة بالنسبة، أي: استوت نسبته إلى كلّ شيء حال كونه مستولياً عليها. وقد استظهر بعض العلماء معنى الاستواء في الآية هذا المعنى، وقيل في معنى العرش هو عرش العظمة، وقال آخرون هو العلم كما في عقائد الصدوق.

ما فائدة المتشابه؟

من المسائل التي شغلت أذهان بعض المفسّرين وذهبوا فيها يميناً وشمالاً في تعليلها هي: ما فائدة وجود المتشابه في القرآن وهو كتاب هداية وأنّه فيه بيان لكلّ شيء؟

---

١. الكافي، كتاب التوحيد ١: ١٢٧، معنى الاستواء وباب العرش والكرسي وفيه سبعة أحاديث، والشافي في شرح الكافي للمظفر ٣: ١٩٨ أصول.

٢. الاعراف: ٥٤.

لقد تعرّض الفخر الرازي إليها في المسألة الرابعة من بحث الآية الكريمة (٧) من سورة آل عمران فقال:

إعلم أنّ من الملحدة من طعن في القرآن لأجل اشتماله على المتشابهات، وقال: إنّكم تقولون إنّ تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام الساعة، ثم إنّا نراه بحيث يتمسّك به كل صاحب مذهب على مذهبه، فالجبري يتمسّك بآيات الجبر، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾.

والقدري يقول: بل هذا مذهب الكفار، بدليل أنّه تعالى حكى ذلك عن الكفار في معرض الذم لهم في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾. وفي موضع آخر ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، وأيضاً مثبت الرؤية يتمسك بقوله: ﴿يخافون ربّهم من فوقهم﴾، وبقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.[١] والنافي يتمسّك بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.[٢]

ثم إنّ كلّ واحد يسمّي الآيات الموافقة لمذهبه: محكمة: والآيات، المخالفة لمذهبه: متشابهة وربّما آل الأمر في ترجيح بعضها على بعض إلى ترجيحات خفية، ووجوه ضعيفة، فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتاب الذي هو المرجوع إليه في كلّ الدين إلى قيام الساعة هكذا، أليس أنّه لو جعله ظاهراً جليّاً نقيّاً عن هذه المتشابهات كان أقرب إلى حصول الغرض؟

ثم يعقّب الرازي على هذا السؤال بذكر خمسة وجوه سوف نأتي على ذكر بعضها عندما نستوفي الحديث عن جميع ما قيل من وجوه، ولكن أقول: من أقبح الآراء التي ذكرها هو الوجه الثاني وإليك نص عبارته:

«الوجه الثاني: لو كان القرآن محكماً بالكلية لما كان مطابقاً إلا لمذهب واحد، وكان تصريحه مبطلاً لكلّ ما سوى ذلك المذهب، وذلك مما ينفّر أرباب المذهب عن قبوله وعن النظر فيه، فالإنتفاع به إنّما حصل لما كان مشتملاً على المحكم وعلى المتشابه، فحينئذ يطمع صاحب كلّ مذهب أن يجد فيه ما يقوّي مذهبه، ويؤثر مقالته، فحينئذ ينظر فيه جميع أرباب

---

١. طه: ٥.

٢. الشورى: ١١.

المذاهب، ويجتهد في التأمل فيه كل صاحب مذهب، فإذا بالغوا في ذلك صارت المحكمات مفسّرة للمتشابهات، فبهذا الطريق يتخلّص المبطل عن باطله ويصل إلى الحق». [١]

أقول: أيّ صاحب نظر وعقل سليم يذهب إلى هذا الرأي؟ وكيف أجاز لنفسه الفخر الرازي أن يذكر هكذا رأي؟ ثم أين كانت المذاهب لما نزل القرآن الكريم؟ هل هي المذاهب الفقهية الأربعة؟ أم المذاهب العقائدية كالمعتزلة والأشاعرة والمرجئة والمفوضة؟ أم المذاهب الكلامية؟ أم المذاهب النحوية..؟! إنه أمر عجيب ورأي سقيم.

ثم متى استمال القرآن أصحاب تلك المذاهب الباطلة والآراء الساقطة؟! وكيف أصبح وجود المتشابه في القرآن ـ إلى جنب المحكم ـ طريق إلى الحق؟!

ومن الوجوه السقيمة التي ذكرها الرازي الوجه الخامس وعبّر عنه بالسبب الأقوى في هذا الباب وهذه عبارته:

«إنّ القرآن كتاب مشتمل على دعوة الخواص والعوام بالكلية، وطبائع العوام تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوام في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيز ولا مشار إليه، ظن أن هذا عدم ونفي فوقع في التعطيل، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض ما يناسب ما يتوهمونه ويتخيلونه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدلّ على الحق الصريح، فالقسم الأول وهو الذي يخاطبون به في أول الأمر يكون من باب المتشابهات، والقسم الثاني وهو الذي يكشف لهم في آخر الأمر هو المحكمات».

أقول: والتهافت في هذا الوجه كالوجه الثاني الذي ذكره، وقد عرفت تعليقنا عليه، أما هنا فلا أدري كيف سوّغ لنفسه الفخر الرازي أن يقحم عوام الناس بين أصحاب المذاهب الكلامية من أشاعرة ومعطلة وغيرهم، وأرباب العقائد وأهل النظر؟! ولو إقتصر كلامه على الخواص من الناس أيّ علماء الأمّة وأصحاب الفكر والاستنباط لكان الأمر أيسر، ولهان المصاب، وأمكن توجيه قوله، فتدبّر.

وقبل أن نذكر الوجوه والأقوال في المسألة نقف قليلاً عند كلام الشيخ محمد عبده وهو

---

١. التفسير الكبير ٧: ١٧٢.

يشير في حديثه إلى بعض آراء العلماء وما يرونه من حكمة في وجود المتشابه وهي عنده ثلاثة؛ قال:

(١) إنّ الله أنزل المتشابه ليمتحن قلوبنا في التصديق به، فإنّه لو كان كلّ ما ورد في الكتاب معقولاً واضحاً لا شبهة فيه عند أحد من الأذكياء، ولا من البلداء لما كان في الإيمان شيء من معنى الخضوع لأمر الله تعالى والتسليم لرسله.

(٢) جعل الله المتشابه في القرآن حافزاً لعقل المؤمن إلى النظر كيلا يضعف فيموت فإنّ السهل الجلي جداً لا عمل للعقل فيه. والدين أعزّ شيء على الإنسان فإذا لم يجد فيه مجالاً للبحث يموت فيه، وإذا مات فيه لا يكون حياً بغيره، فالعقل شيء واحد إذا قوى في شيء قوي في كلّ شيء، وإذا ضعف ضعف في كل شيء ولذلك قال: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1] ولم يقل والراسخون في الدين لأن العلم أعم وأشمل، فمن رحمته تعالى أن جعل في الدين مجالاً لبحث العقل بما أودع فيه من المتشابه، فهو يبحث أولاً في تمييز المتشابه من غيره وذلك يستلزم البحث في الأدلة الكونية والبراهين العقلية وطرق الخطاب ووجوه الدلالة ليصل إلى فهمه ويهتدي إلى تأويله. وهذا الوجه لا يأتي إلا على قول من عطف ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ على لفظ الجلالة وليكن كذلك.

(٣) إنّ الأنبياء بعثوا إلى جميع الأصناف من عامة الناس وخاصتهم، سواء كانت بعثتهم لأقوامهم خاصة كالأنبياء السالفين عليهم السلام أو لجميع البشر كنبيّنا صلى الله عليه وآله، فإذا كانت الدعوة إلى الدين موجهة إلى العالم والجاهل والذكي والبليد والمرأة والخادم، وكان من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة تكشف عن حقيقته وتشرح كنهه بحيث يفهمه كلّ مخاطب عامياً كان أو خاصياً ألا يكون في ذلك من المعاني العالية والحكم الدقيقة ما يفهمه الخاصة ولو بطريق الكناية والتعرض، ويؤمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله تعالى والوقوف عند حد المحكم فيكون لكل نصيبه على قدر استعداده مثال ذلك إطلاق لفظ كلمة الله (وروح من الله) على عيسى، فالخاصة يفهمون من هذا ما لا تفهمه العامة، ولذلك فتن النصارى بمثل هذا

---

١. آل عمران: ٧.

التعبير إذ لم يقفوا عند حد المحكم وهو التنزيه واستحالة أن يكون لله جنس أو أمّ أو ولد، والمحكم عندنا في هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾.[١]

ما ينبغي الالتفات إليه:

تناول العلامة الطباطبائي ـ تحت عنوان: ما هو السبب في اشتمال الكتاب على المتشابه؟ ـ الآراء التي ذكرناها، والمنقولة عن الفخر الرازي، كما أنه تناول الردّ على بعض الآراء ولكنّه لم يشر إلى مصدر تلك الآراء ولا إلى قائلها، ولا من ردَ عليها، وقد أطلعناك أن الآراء الخمسة المتقدّمة هي للفخر الرازي، وأمّا الرد فهو للإمام محمد عبده المصري الذي سبق العلامة في تفسيره بأكثر من نصف قرن.[٢]

نعد إلى ما بدأنا به في صدر الكلام من فرض

وهو لرب سائل يقول: إنّما نزل القرآن لبيان الدين وإرشاد العباد وهدايتهم فما فائدة المتشابه وهلا كان كلّه محكماً؟

أقول: لا يمكن تحديد جواب معين عن هكذا سؤال، لكن هناك عدة أجوبة يمكن الالتفات إليها.

الجواب الأول: أن القرآن أنزل بألفاظ العرب كما يفهمونه، وكلام العرب على ضربين أحدهما: الإيجاز للإختصار، والموجز الذي لا يخفى على سامعه ولا يحتمل غير ظاهره أو الإطالة لبيان المراد والتوكيد.

والضرب الثاني المجاز والكنايات والإشارات والتلويحات وإغماض بعض المعاني وهذا الضرب هو المستحسن عند العرب والبديع في كلامهم.[٣]

فأنزل الله القرآن على هذين الضربين لتحقّق عجزهم عن الإتيان بمثله فكأنّه قال عارضوه بأيَ الضربين شئتم ولو نزل كلّه محكماً واضحاً لقالوا هلا أنزل بالضرب المستحسن.

---

١. تفسير المنار ٣: ١٧٠.

٢. للتأكيد قارن بين تفسير المنار المتقدم، وتفسير الميزان ٣: ٥٦ وما بعدها.

٣. للمزيد من الإطلاع ينظر ما كتبه إبن قتيبة في تأويل مشكل القرآن: ص ٨٦

الجواب الثاني: أنّ الله سبحانه أنزل المتشابه لفائدة عظيمة وهي أن يشتغل أهل العلم والنظر بردّهم المتشابه إلى المحكم، فيطول بذلك فكرهم ويتّصل بالبحث عن معانيه إهتمامهم، فيثابون على تعبهم كما أثيبوا على عباداتهم. ولو نزل القرآن كلّه محكماً لاستوى في معرفته العالم والجاهل ولم يفضل العالم على غيره ولماتت الخواطر وخمدت الفكرة ومع الغموض تقع الحاجة إلى الفكرة والحيلة إلى استخراج المعاني، وقد قيل في عيب الغنى أنه يورث البلادة وفي فضيلة الفقر أنه يورث الفطنة، وقيل إنه يبعث على الحيلة لأنه إذا احتاج احتال.[1]

الجواب الثالث: أنّ أهل كل علم يجعلون في علومهم معانٍ غامضة ومسائل دقيقة ليختبروا بذلك أذهان المتعلّمين منهم على إنتزاع الجواب لأنّهم إذا قدروا على إنتزاع المعاني الغامضة كانوا على الواضح أقدر، فلمّا كان ذلك حسناً عند العلماء جاز أن يكون ما أنزل الله تعالى من المتشابه على هذا النحو.

الجواب الرابع: أنّ الله تعالى أنزل المتشابه في كتابه مختبراً به عباده، ليقف المؤمن عنده، ويرد علمه إلى عالمه، فيعظم ذلك ثوابه ويرتاب به المنافق فيدخله الزيغ فيستحق بذلك العقوبة كما إبتلي بنو إسرائيل بالنهر.[2]

الجواب الخامس: ما يذهب إليه الراغب الأصفهاني عند إجابته على المعترض في سؤاله هلاّ جعل القرآن على نمط المحكم حتى كان يكفي الإنسان مؤونة النظر الذي قلّما سلم متعاطيه من زلة؟

يقول الراغب: إنّ هذه المسألة يذكرونها في الأحكام فربّما قالوا: هلاّ بينت كلّها حتى يستغني عن جهد الرأي الذي لا يؤمن خطؤه، بل إنّهم يعترضون بها في أصل التكليف، فيقولون: هلاّ خوّلنا الله إنعامه فلا مشقّة ولا مؤونة حتى يكون عطاؤه أهنأ منالاً!

لا يتوان الراغب في أن يعطي جواباً واحداً لكلّ هذه التساؤلات فيقول: إنّ الله تعالى خصّ الإنسان بالفكر والروية والتمييز، وجعله بذلك خليفة في الأرض حتى صار لأجلها

---

١. تأويل مشكل للقرآن: ص ٨٦

٢. تفسير الخازن ١: ٣٢٠.

شريفاً موصوفاً بالعلم والحلم والحكمة: «وكثير من الصفات التي هي من صفاته تعالى، وإنْ لم تكن على حدها وحقيقتها».

ثمّ يقول: إنّ الإنسان بقدر ما يكتسب من قوله في العلم تتزايد معرفته بغوامض معاني القرآن.

إذن يمكن القول ـ على التفسير المتقدّم ـ أنّ وجود المتشابه في القرآن الكريم طريق لأعمال الفكر والرؤية والاستزادة من طلب العلم ووصولاً إلى معرفة المزيد من غوامض التنزيل.[1]

الجواب السادس: ويتضمّن هذا الجواب عدّة فقرات قد استخلصناها من كلام القاضي عبد الجبار الهمذاني وهي:

أ) إنّ الله عزّوجَلّ يفعل بالمكلّف كلّ ما يكون أدعى له إلى فعل ما كُلّف، وهذا مقترن بطاعة العبد الخالصة لله سبحانه والتزامه بالتقوى.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾.[2]

وعليه فلابدّ للمكلّف أن يعرف الله سبحانه بالنظر في الأدلّة ويحرم عليه الرجوع إلى التقليد في ذلك، فكل أمر يبعث على النظر ويصرّف عن التقليد فهو أولى في الحكمة، وإنزاله عزّوجَلّ القرآن محكماً ومتشابها هو أقرب إلى ذلك من وجوه، فيجب أن يكون حسناً في الحكمة، وأن يكون أولى من أن يجعله كلّه محكماً.

فمن تلك الوجوه: أنّ السامع للقرآن والقارئ له إذا رأى المحكم والمتشابه كالمتناقض في الظاهر لم يكن بأن يتّبع أحدهما أولى من الآخر فيما يرجع إلى اللغة فيلجئه ذلك إذا كان ممن يطلب الدين والبصيرة إلى الرجوع إلى أدلة العقول لينكشف له بها الحق من الباطل، فيعلم عند ذلك أن الحق المحكم وأنّ المتشابه يجب حمله على موافقته.

ومنها: عند الالتباس واختلاط الأمر عند الناظر عليه أن يعود إلى العلماء ومذاكرتهم فيما التبس، ومباحثتهم طلباً للتوضيح، أو تعيين الدليل ومساءلتهم ما يحتاج إليه في أمر دينه، ومتى رجع إليهم وحصلت المباحثة كان ذلك أقرب إلى أن يقف على ما كلّف من معرفة الله

---

١. مقدمة تفسير الراغب.

٢. الأعراف: ٩٦.

تعالى، وكلّ أمر أدّى إلى ما يؤدّي إلى معرفة الله فهو أولى.

ومنها: أنّ القرآن لا يرتضي بتقليد الناظر وأخذ العبادات من دون تفهّم أو تعقّل، ولو جرت الأمور على التقليد فأيّ منّا يكون تقليده أولى من تقليد الغير؟!

وعليه قد عرف أنّه ليس تقليد بعض الناس أولى من تقليد سائرهم، فكذلك انقسام القرآن إلى المحكم والمتشابه فما صرف عن التقليد المحرّم وبعث على النظر والأستدلال فهو في الحكمة أولى، ثمّ إنّك قد عرفت أن خطابات الله سبحانه أنّه فعله على ما تقتضيه الحكمة والمصلحة، وأنّه تعالى يعلم مصالح العباد، وقد دلّ بالعقل على أنّه تعالى لا يريد بذلك أجمع إلا الوجه الصحيح.[1]

أقول: وهذه الفقرة الأخيرة تصحّ من القاضي فيما إذا صرف التقليد إلى عمل النظر والاستدلال بأقوال الرسولصلى‌الله‌عليه‌وآله وأهل البيتعليهم‌السلام، لكون أنّ الخطابات القرآنية الموجّه للناس قد نزلت على صدر النّبيّصلى‌الله‌عليه‌وآله وقد وعاها وفهم مقاصدها بتعليم من الله سبحانه، فهو أعلم بالمحكم منه والمتشابه، كما أنّ علمه هذا أورثه لأهل بيته الطاهرينعليهم‌السلام، فهم الراسخون في العلم، وهم المعنيّون بورثة الأنبياء، وهم عدل القرآن الكريم.

ب) وربما قيل في وجه الحكمة إنّه تعالى علم أنّ ذلك ـ المحكم والمتشابه ـ إدّعى إلى نظر جميع المختلفين في القرآن بأن يظنّ كلّ واحد منهم أن يجد فيه ما ينصر به قوله ومذهبه ولذلك قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذينَ في قُلُوبهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾،[2] فنبّه بذلك على أنّهم ينظرون فيه لهذا القصد، فقصدهم وإنْ قبح فإنّ نظرهم فيه يحسن ومَنْ هو من أهل الذين ينظر فيه لا على هذا المد.

فإذا صح أنّ ذلك ادعى إلى نظر الجميع فيه، والتدبر والتفكر في آياته ومعانيه وعجائبه ما أودع تعالى فيه من الأدلة والبيان، فيجب أن يكون أولى في الحكمة من أن يجعله كلّه محكماً فيعلم المحق والمبطل أنّه إنما يدلّ ظاهره على طريقة واحدة.

---

١. متشابه القرآن للقاضي عبد الجبار، القسم الأول: ص ٢٦.

٢. آل عمران: ٧.

وعليه أنّ النظر والتفكر في كلّ حالاته جيد بشرط أن لا يؤدّي ذلك التفكر والنظر إلى ابتغاء الفتنة وإذا أدّى إلى ذلك فهو قطعاً قبيح ومحرّم، إذن التعويل في ذلك النظر على قصد الناظر، علماً أن المتشابه يحتاج إلى نظر زائد، وهذه الزيادة في النظر موجبة للثواب الزائد، فإذا علم ذلك إتّضح الأمر أنّ النظر مطلوب، والتفكر أمر محمود، حتى يتميّز ما يجب أن يعتقد ظاهره مما يجب أن يرجع فيه إلى الدليل فيجب أن يكون ذلك في الحكمة أولى.[١]

١. متشابه القرآن: ص ٢٨.

القسم الثاني

الفصل الأول

نماذج من الآيات المتشابهة
دراسة وتحليل

تطبيقات

من الآيات المتشابه قوله تعالى: ﴿إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.[1]

النظر بمعناه الماديّ لابدّ أن يقع من الحاسة على الأجسام المادية وهذا المعنى لا ينطبق على الآية المتقدّمة لأن الله سبحانه ليس بجسم حتى تبصره العيون. إذن هذه الآية من المتشابهات ولابدّ من إرجاعها إلى المحكم من الآيات، وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام آية (١٠٣): ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾،[2] من هذا نحصل أنّ المراد من (النظر) في الآية الأولى هو أمر آخر غير النظر الحسّي.

***

قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾.[3]

ظاهر معنى الإستواء في اللغة الجلوس والإتكاء على شيء وفي مكانٍ معينٍ، ولمّا كان هذا المعنى من المحالات بالنسبة إلى الله فلابدّ من تأويل كلمة استواءٍ في الآية، فيتحصّل عندنا أنّ المقصود هو الهيمنة على الملك والإحاطة الكاملة بالخلق وقد استفدنا هذا المعنى لتنزيه الله من الجسمية لأنّه سبحانه يقول في سورة الشورى آية (١١):

---

١. القيامة: ٢٣.
٢. الأنعام: ١٠٣.
٣. طه: ٥.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾،[1] وبهذا أرجعنا الآية المتشابه من سورة طه إلى الآية المحكمة من سورة الشورى.

***

من الآيات المتشابهة قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.[2]

أول ما يتبادر إلى الذهن الإنساني ـ المأنوس بالأمور الحسّية ـ تصور تلك الأوصاف الجسمية، فتنقدح له بعض الخواص المادّية. ولو أرجعنا هذه الآية إلى أصول المعرفة القرآنية ـ التوحيد منها ـ سوف تنكشف لنا الحقائق بأجلى صورها، فالصفات الإلهية غير قابلة للتجسيم كالذات، لأنّ المعاني الجسمية من خواص المادة، فما يبرز في اللحاظ الأوّلي إنّما هو المعنى الساذج وهذا يتلاشى بعد إرجاع معنى تلك الآية المتشابهة إلى معنى الآيات المحكمة.

فإذا كانت الحقائق الخارجيّة المحسوسة (الماديّة) تخضع لمعايير الحواس وضوابطها فإنّ المعارف والبحوث غير المادّية تنأى عن تلك الضوابط، هذا من جهة.

ثمّ إنّ تلك المعارف العالية تدلّ ـ من جهة أخرى ـ على أنّ الإدراك البشري في الإحاطة بهذا النوع من المعارف يتفاوت بين شخص وآخر تبعاً للمؤهلات والقدرات ولتنوع الإستعدادات التي يحملها الفرد.

وعليه فإنّ فهم المتشابه يقع على عاتق من خوطب به، أيّ أنّ النص الإلهي ليس فيه قصور أو نقص، وإنّما الأمر يرتبط في طبيعة الإستعدادات المتفاوتة للمخاطبين.

***

من الآيات المتشابهة قوله تعالى: ﴿وَجَاء رَبُّكَ﴾.[3]

المعنى المتبادر ـ من المجيء ـ في الذهن الإنساني هو الذي يتصوّره الإنسان باللحاظ الأوّلي من الحركة المنبعثة عند المتحرك والتنقل من مكان إلى آخر.

والحركة تصدق على الأجسام والأشياء التي يشعر بها الإنسان كحركة الهواء والماء.

---

١. الشورى: ١١١.

٢. الفجر: ١٤.

٣. الفجر: ٢٢.

وهذا اللون من التصور لا يصدق على الله سبحانه، لكونه ليس بجسم ولا مادّة، إذن هذا المعنى الساذج ليس هو المقصود، فالمجيء في الآية الكريمة لها معنى أسمى، لا نصل إليه إلا باستعدادات عالية، وهذه متفاوتة من شخص إلى آخر.

وعليه فقد نفهم أنّ المجيء بمعنى صدور الأمر، قوله: ﴿وجاء ربك﴾، أيَ أمر ربّك.

آيات محكمات صيّر ها أهلُ البدعِ والزيغِ متشابهات أو منسوخات

ليس غريباً أن تلعب الأهواء في قلب الحقائق طالما باتت تلك النفوس المريضة حاقدة على أهل بيت العصمة ومعدن الرسالة.

ثمّ لا ننسى الدور الذي لعبه الأمويين ـ وأهل البدع ومن له أطماع ـ في طمس الحقائق وإنكارهم لفضائل أميرالمؤمنين وفاطمة وولديهما الحسن والحسين عليهم السلام، بل في طمس فضائل سائر أهل البيت عليهم السلام.

ثمّ هذا القرآن المجيد ماثل للجميع، إنّه ينطق بفضائل العترة الطاهرة، والصحابة يشهدون لهم بتلك الفضائل، والنّبيّ من فوقهم يؤكّدها بأحاديثه حتى روتها كتب الصحّاح والمسانيد والمجاميع الحديثية، وذهبت به الركبان على مرّ الدهور، ومع كلّ هذا وذاك تجد مَنْ في قلبه مرض يتطاول في قلمه ولسانه فينكر تلك الفضائل، ويحرّف الكلم عن مواضعه، ويصيّر جملة من الآيات المحكمة فيجعلها من المتشابهات أو المنسوخات وإليك بعضها:

في قوله تعالى: ﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى..﴾.[1]

أنظر: شواهد التنزيل إنها نزلت ـ كما عن إبن عباس وعن إبن أمامة الباهلي وعن علي عليه السلام وعن الحسن عليه السلام وعن الحسين عليه السلام وعن التابعين جم غفير ـ في علي وفاطمة وولديهما عليهم السلام.[2]

التعليق

ورد في كتاب الناسخ والمنسوخ لابن المتوّج (ت ۸۳٦هـ) ص۱۷۸: أن هذه الآية

۱. الشورى: ۲۳.

۲. كفاية الطالب: ص ۹۰، ط ۲؛ وشواهد التنزيل ۲: ۱۳۰، ۱٤٦ وفيه أكثر من عشرين رواية وبأسانيد مختلفة.

(٢٣ الشورى) منسوخة بقوله: ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.[١]

وأما معنى الآية كما أورده في الصفحة المذكورة هو:

لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجراً إلا التواد والتحابب، فيما يقرّب إلى الله من العمل الصالح.

ويعقّب بعد هذا فيقول: (هذا محكم) ويستأنف الكلام فيقول: فقد قيل في بيان ذلك أنّ النّبيّ ﷺ لما قدم المدينة قال بعض الأنصار أنّ رسول الله ﷺ تقدّم عليه الوفود وليس عنده شيء، فلو جمعنا له مالاً من بيننا لأغناه على وفوده فقالوا: نستأذنه، فقالوا له ذلك فنزلت الآية، والمعنى لا أطلب على إبلاغ الرسالة جعلاً إلّا المودّة في القربى أيّ لا تؤذوني في قرابتي.

وقيل: بل هي منسوخة بقوله؛ قل لهم يا محمد! (ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله) أيّ ليس ثواب عملي إلّا على الله فهو يثيبني عليه ولا يضيعه وهو على كلّ شيء شهيد أيّ عليم به لم يغب عنه شيء فيعلم ما يلحقني من أذاكم.[٢]

والحق ليس كذلك، فالآية غير منسوخة لأنّ مفاد الآية الثانية ليس طلب الأجر على أداء الرسالة مع نفي المودّة عن القرابة، بل المراد نفي مسألة الأجر رأساً.

والعجيب في الأمر أنّ الطبريّ (ت ٣١٠ هـ) يورد في تفسيره عدة معان لهذه الآية الكريمة، فيقول: واختلف أهل التأويل في معنى قوله: ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى..﴾،[٣] فقال بعضهم: إلا أن تودّوني في قرابتي منكم، وتصلوا رحمي بيني وبينكم وذكر لهذا المعنى | ١٥] رواية، ثمّ ذكر معنى أخر فقال: وقال آخرون: بل معنى ذلك: قل لمن تبعك من المؤمنين: لا أسألكم على ما جئتكم به آجراً إلا أن تودّوا قرابتي، وذكر في هذا المعنى أربع روايات.

ثمّ أورد معنى ثالثاً. فقال: وقال آخرون: بل معنى ذلك: قل لا أسألكم أيّها الناس على ما جئتكم به أجراً إلاّ أن تتودّدوا إليّ وتتقرّبوا بالعمل الصالح والطاعة، وأورد فيه خمس روايات.

---

١. سبأ: ٤٧.

٢. الناسخ لابن المتوّج: ص ١٧٩.

٣. الشورى: ٢٣.

ثمّ ذكر معنى رابعاً فقال: وقال آخرون: بل معنى ذلك: إلا أن تصلوا قرابتكم، وذكر فيه رواية واحدة.

ثم قال: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، وأشبههما بظاهر التنزيل قول من قال: معناه: قل لا أسألكم عليه أجراً يا معشر قريش، إلا أن تودّوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم.[1]

هكذا أسدل الستار على معنى الآية دون أن يذكر الروايات الصحيحة التي أفصحت عن سبب نزول هذه الآية، بينما نجد عشرات المصادر من كتب الجمهور تؤكّد أنّ هذه الآية نزلت بحق علي وفاطمة وولديهما الحسن والحسينعليهم السلام.

روى الحافظ عبيدالله المعروف بالحاكم الحسكاني بسنده عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن إبن عباس قال: لما نزلت: ﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى..﴾،[2] قالوا يا رسول اللهصلى الله عليه وآله: من هؤلاء الذين امرنا الله بمودّتهم؟

قال: علي وفاطمة وولدهما.[3]

وروى أبو نعيم في حلية الأولياء بسنده عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال: جاء إعرابي إلى النّبيّصلى الله عليه وآله فقال: يا محمد! اعرض على الإسلام، فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله.

قال: تسألني عليه أجراً؟

قال: لا، إلاّ المودة في القربى.

قال: قرابتي أو قرابتك؟

قال: قرابتي.

قال: هات أبايعك فعلى مَنْ لا يُحبّك ولا يُحبّ قرباك لعنة الله فقال النبيصلى الله عليه وآله: آمين.[4]

---

١. جامع البيان في تأويل القرآن، إبن جرير الطبري ١١: ١٤٥.

٢. الشورى: ٢٣.

٣. شواهد التنزيل ٢: ١٣١.

٤. حلية الأولياء ٣: ٢٠١؛ وكفاية الطالب: ص ٩٠.

وروى إبن المغازلي الشافعي في مناقبه، الحديث ٣٥٥ بسنده عن سعيد بن جبير عن إبن عباس قال: لما نزلت: ﴿قُل لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...﴾، قالوا: يا رسول الله ﷺ من هؤلاء القربى الذين أمر الله بمودّتهم؟

قال: علي وفاطمة وولدهما عليهم السلام.[1]

وفي الحديث (٩) من الباب (٥)من المقصد الثاني من غاية المرام برواية محمد بن جرير في كتاب المناقب أنّ النّبيّ ﷺ قال لعلي: اخرج فناد: ألا من ظلم أجيراً أجرته فعليه لعنة الله، ألا من تولّى غير مواليه لعنه‌الله فنادى بذلك فدخل عمر وجماعة على النّبيّ وقالوا: هل من تفسير لما نادى به علي؟

قال: نعم إنّ الله يقول سبحانه: ﴿قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى...﴾، فمن ظلمنا فعليه لعنة الله، ويقول سبحانه: ﴿النّبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ فمن كنت مولاه فعلي مولاه، فمن والى غيره وغير ذرّيته فعليه لعنة الله، وأشهدكم أنا وعلي أبَوَا المؤمنين فمن سبّ أحدنا فعليه لعنة الله.

فلّما خرجوا قال عمر: ما أكّد النّبي ﷺ لعلي بغدير خمّ ولا غيره أشدّ من تأكيده في يومنا هذا.[2]

أقول: والكلام يطول فيما لو أردنا أن نسرد تلك الأخبار والأحاديث التي صرّحت بأسماء أولئك القربى، ولكن نكتفي بذكر بعض المصادر التي تُعدّ من أهم كتب الجمهور، فمنها:

تفسير الكشاف للزمخشري (٢: ٣٣٩).

ذخائر العقبى لمحب الدين (ص ٢٥).

مجمع الزوائد للهيثمي (٧: ١٠٣ و٩: ١٦٨).

نور الأبصار للشبلنجي (ص ١٠١).

الصواعق المحرقة لإبن حجر (ص ١٠١).

---

١. مناقب إبن المغازلي الحديث ٣٥٥. ورواه بعينه في الحديث الأخير من الباب (٥) من المقصد الثاني من غاية المرام: ص ٣٠٧.

٢. غاية المرام: ص ٣٠٦.

وتأريخ دمشق لإبن عساكر (٣٧: ٤٣) في ترجمة أمير المؤمنين.

وخير ما نختم به هذا البحث ما جاء عن الحرب بن الحكم بن المنذر بن الجارود وإلى رامهرمز وكرمان وكان سيداً شريفاً قال:

رأيت الرضا بالعيش داعية الغنى ... وغير الرضا بالعيش داعية الفقر

ومن لا يكن فيه التكرم شيمة ... فليس بذي وفرٍ وإن كان ذا وفر

ومن طمحت عيناه في رزق غيره ... يمت كمداً في دأبه غير ذي شكر

فحسبي من الدنيا كفاف يكفّني ... وأثواب كتّان أزور بها قبري

وحبي ذوي قربى النّبي محمد ... وما سألنا إلا المودة من أجر

ومن الآيات المحكمات التي صيّرها البعض منسوخة قوله تعالى من سورة الذاريات آية (١٧ ـ ١٨):

﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ *وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾.[1]

عن أبي بكر بن المؤمن، عن أبي عمر عبد الملك بن علي، عن عبد الله بن منيع، عن علي بن الجعد، عن سعيد، عن قتادة، عن سعيد بن جبير، عن إبن عباس في قوله:﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ قال: نزلت في علي بن أبي‌طالب والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام وكان على يصلّي ثلثي الليل الأخير، وينام الثلث الأول فإذا كان السحر جلس في الإستغفار والدعاء، وكان ورده في كلّ ليلة سبعين ركعة ختم فيها القرآن.[2]

قال إبن المتوّج: سورة الذاريات ستون آية بالإجماع مكية وفيها من المنسوخ آيتان الأولى قوله:﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ ﴾ وهو الذي يسأل الناس، والمحروم المتعفّف الذي لا يسأل نسخت بآية الزكاة.[3]

---

١. الذاريات: ١٧ ـ ١٩.

٢. شواهد التنزيل للحسكاني ٢: ١٩٥.

٣. الناسخ لإبن المتوّج: ص ١٨٦.

ومن الآيات المحكمات التي صيّرها البعض منسوخة قوله تعالى من سورة المجادلة (١٣ ـ ١٤):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.[1]

اجمعت كتب التفاسير، والمفسرون من الفريقين أنها نزلت في الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

أنظر في شأن نزولها مجمع البيان، ٩: ٢٥٣.

و تفسير الطبري، ٢٨: ١٩.

و كفاية الطالب، ١٣٥.

و مناقب إبن المغازلي: رقم الرواية، ٣٧٥.

و العمدة لإبن البطريق، ص ٩٣.

و سمط النجوم: ٢: ٤٧٤، وقد أخرجه أبو حاتم.

و خصائص النسائي، ص ٣٩؛ وطبعة أخرى، ص ١٣٨.

و سنن الترمذي في باب تفسير القرآن، ٢: ٢٢٧.

و صحيح إبن حبان، ٢: ١٨٠.

و مصنف إبن شيبه، ٦: ١٦٠، أو ٧: الورقة أ.

و منتخب كنزالعمال بهامش مسند أحمد ٢: ٢١، قال المصنّف: أجمع المفسرون أن المعني بهاتين الآيتين هو الإمام علي عليه السلام نقلاً عن إبن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وإبن جرير، وأبي يعلى وإبن المنذر، والدورقي، وإبن حبان، وإبن مردويه، والترمذي.

وفي تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل للعالم النسفي الحنفي المطبوع بهامش: تفسير الخازن، ٤: ٢٤٢ كذلك.

---

١. المجادلة: ١٢ ـ ١٣.

ومقام أمير المؤمنين لنجم الدين العسكري، ص ٥٨.

وتفسير البرهان، ٤٠: ٣٠٩.

وغاية المرام، ص ٣٤٨.

وتأريخ دمشق من كتاب ترجمة أمير المؤمنين، ٣٨: ٣٥.

والكامل لإبن عدي في ترجمة الأجلح بن عبدالله بن معاوية، ١: ١٥٣.

موقف السلطة آنذاك من المتشابه؟

موقف الخليفة عمر بن الخطاب وقصّة صبيغ بن عسل وسؤاله عن المتشابه:

أخرج الدارمي في مسنده ونصر المقدّسي في الحجة عن سليمان بن يسار أن رجلاً يقال له (صبيغ) قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وقد أعدّ له عراجين[١] النخل فقال: من أنت؟

فقال: أنا عبد الله صبيغ؛ فقال عمر: وأنا عبد الله عمر فأخذ عمر عرجوناً من تلك العراجين، فضربه حتى أدمى رأسه فقال: يا أمير المؤمنين حسبك... قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي.

وأخرج الدارمي عن نافع: أنّ صبيغاً العراقي جعل يسأل عن أشياء من القرآن في أجناد المسلمين حتى قدم مصر، أرسل عمر على رطائب من جريد[٢] فضربه بها حتى ترك ظهره برة[٣] ثمّ تركه حتى برئ، ثمّ عاد له، ثمّ تركه حتى برئ، فدعا به ليعود له فقال صبيغ: إن كنت تريد قتلي فاقتلني قتلاً جميلاً، وإنْ كنت تريد أن تداويني فقد والله برأت. فأذن له إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالسه أحد من المسلمين.

وأخرج إبن عساكر في تأريخه عن أنس: أنّ عمر بن الخطاب جلد صبيغاً الكوفي في مسألة عن حرف من القرآن حتى أطّردت الدماء في ظهره.[٤]

---

١. مفردها عرجون وهو ما يطلق على كرب النخل.

٢. أيّ جريد النخل الخضراء.

٣. أيّ ترك ظهره مثقلاً بالجروح.

٤. سنن الدارمي ١: ٥٤ و٥٥؛ مختصر تأريخ إبن عساكر لإبن منظور ١١: ٤٥؛ بحار الأنوار للمجلسي ٣١: ٩٢؛ المسترشد لمحمد بن جرير الطبري: ص ٥٤٤.

وأخرج إبن الأنباري في المصاحف ونصر المقدسي في الحجة وإبن عساكر عن السائب بن يزيد أنّ رجلاً قال لعمر: إنّي مررت برجل يسأل عن تفسير مشكل القرآن، فقال عمر: اللّهم أمكني منه، فدخل الرجل يوماً على عمر فسأله، فقام عمر، فحسر عن ذراعيه، وجعل يجلده ثم قال: ألبسوه تباناً واحملوه على قتب، وأبلغوا به حيّه، ثم ليقم خطيب فليقل أن صبيغاً طلب العلم فأخطأه، فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيداً فيهم.

وأخرج نصر المقدسي في الحجة وإبن عساكر عن أبي عثمان النهدي أن عمر كتب إلى أهل البصرة، أن لا يجالسوا صبيغاً قال: فلو جاء ونحن مائة لتفرّقنا.

وأخرج إبن عساكر عن محمد بن سيرين قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن لا يجالس صبيغاً، وأن يحرم عطاءه ورزقه.

وأخرج نصر في الحجة وإبن عساكر عن زرعة قال: رأيت صبيغ بن عسل بالبصرة كأنه بعير أجرب، يجي إلى الحلقة ويجلس وهم لا يعرفونه، فتناديهم الحلقة الأخرى: عزمة أمير المؤمنين عمر، فيقومون ويدعونه.

وأخرج نصر في الحجة عن أبي إسحاق: أن عمر كتب إلى أبي موسى الأشعري، أما بعد.. فإن الأصبغ تكلّف ما يخفى وضيع ما ولي، فإذا جاءك كتابي هذا فلا تبايعوه وإنْ مرض فلا تعودوه، وإنّ مات فلا تشهدوه.

وأخرج الهروي في ذمّ الكلام عن الإمام الشافعي قال: حكمي في أهل الكلام حكم عمر في صبيغ، أن يضربوا بالجريد، ويحملوا على الإبل، ويطاف بهم في العشائر والقبائل، وينادي عليهم هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على علم الكلام.

وأخرج الدارمي عن عمر بن الخطاب قال: إنّه سيأتيكم ناس يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسنن، فإنّ أصحاب السنن أعلم بكتاب الله.

ومن الآيات المتشابهة قوله تعالى: ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾[1]

يبدو للنظر الأول أن غير الله سبحانه أيضاً خالق مثله. وفي هذه الآية لم يبين سبحانه الغير مَنْ

١. المؤمنون: ١٤.

هم؟ ومنْ أيّ جنس؛ منَ الجنّ أو الإنسِ أو غيرهما. ثمّ كلمة (أحسَن) أفعل تفضيل وهذا يعني من النظر الأول يوجد أكثر من خالق وبعضهم أحسن من البعض الآخر، والله أحسن من ذلك البعض..! والأمر سيتّضح جلياً فانتظر.

ثمّ يمكن تعيين من يخلق وجنسه في المواضيع التي ذكر الله إسناد الخلق إلى غيره في القرآن الكريم من ذلك ماجاء في قصة عيسى عليه السلام مع بني إسرائيل قوله تعالى: ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً..﴾.[1]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً﴾.[2]

وقوله تعالى: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ﴾.[3]

وقوله تعالى على لسان إبراهيم وهو يخاطب قومه:

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً﴾.[4]

بعد النظر في الآيات المتقدّمة يلوّح للقارئ أن الإنسان باشر في خلق الطير والبلاد أو إنفرد في خلق الصنائع الغريبة وما شابه ذلك. والأمر للعاقل المتتبع واضح جلي وذلك لأنّ الإنسان خلق مفطوراً على التكامل بما استودع فيه من القوى والطاقات المستخدمة والموهوبة له من قبل بارئه، فسخّر له ما في البر والبحر، ومكّنه من الطبيعة وما فيها من الموارد والكنوز، فتحريك الطبيعة على فطرتها بما جعل الله لها من القوى لا يكون خلقاً حقيقياً كما قال تعالى:

﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.[5]

وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾.[6]

---

١. آل عمران: ٤٩.
٢. المائدة: ١١٠.
٣. الفجر: ٧ ـ ٨.
٤. العنكبوت: ١٧.
٥. الزخرف: ٩.
٦. الواقعة: ٥٩.

وقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.[١]

وقوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.[٢]

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.[٣]

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾.[٤]

وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.[٥]

وقوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.[٦]

إذن إطلاق الخلق هو الإيجاد من العدم مع القدرة على الإفناء وهذا مخصوص بالله سبحانه، فلا يصح إطلاقه على أفعال الإنسان.

وإذا سمّينا أفعال الإنسان خلقاً فهو من باب المجاز لا الحقيقة، وهكذا بالنسبة إلى بقية التصرفات في الطبيعة وإن يصدق عليها خلقاً في اللغة أما حقيقة، فلا.

وبهذا يتعين أن معنى الخلق ـ أو أن الخالق هو ـ من أعطى كلّ شيء خلقه فأحسنه سواء كان خلقاً من شيء كالإنسان الذي خلقه سبحانه من تراب وماء أو من طين ثمّ جعل نسله من ماء مهين، أو كان خلقاً مبتدعاً بأمر منه، (كن فيكون)، كخلق السماوات والأرض والشمس والقمر والنور والظلمة وما شاكل.

وكلّ ذلك مخصوص بالله عزّ إسمه فما يخلقه لا نظير له، بل لا يتساوى والخلق المتحقق من أفعال الإنسان.

وقد عرفت ما يصدر من الإنسان إنّما هو بإتباع الأسباب الطبيعيّة وتصرّفه في تلك الطبيعة بقدر القوى المعطاة له والمواهب المدّخرة فيه، ومع ذلك ما يفعله لا يصدق عليه الخلق بمعناه المطلق وهو في ذلك أعجز.

---

١. الأعراف: ١٩١.
٢. النحل: ٨.
٣. النحل: ٢٠.
٤. البقرة ٢٩.
٥. الأنعام: ١.
٦. لقمان: ١١.

ومن الفساد فيما لو قلت أحسن الآلهة لما لم يصحّ إثبات إله سواه. بعكس قولك إنّه أرحم الراحمين لكون قسّمت الرحمة بينه وبين العباد، وبين المخلوق من هو راحم.

نعم ما نحن فيه ـ الخلق والخالقين ـ شبيه قولك فلان ربّ البيت وربّ الأسرة وربّ الأولاد حيث لم يمتنع أن يكون العبدُ رباً لهذه المفردات فكذلك يصحّ فيه معنى الخلق والفعل وإن منع فيه الإطلاق.

الفصل الثاني

آيات الرؤية

آيات الرؤية

(١) قوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾.[1]

(٢) قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.[2]

(٣) قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ﴾.[3]

(٤) قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾.[4]

(٥) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾.[5]

(٦) قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾.[6]

---

١. الأنعام: ١٠٣.

٢. القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.

٣. الأعراف: ١٤٣.

٤. النساء: ١٥٣.

٥. البقرة: ٥٥ .

٦. الأعراف: ١٥٥.

(٧) قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾.[١]

(٨) قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ﴾.[٢]

(٩) قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَاء اللّهِ حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾.[٣]

(١٠) قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾.[٤]

(١١) قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾.[٥]

(١٢) قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾.[٦]

(١٣) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾.[٧]

(١٤) قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾.[٨]

(١٥) قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾.[٩]

(١٦) قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾.[١٠]

(١٧) قوله تعالى: ﴿لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾.[١١]

(١٨) قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.[١٢]

---

١. الأعراف: ١٤٣.
٢. البقرة: ٢٢٣.
٣. الأنعام: ٣١.
٤. يونس: ٢٦.
٥. المطففين: ١٥.
٦. النجم: ١١.
٧. النجم: ١٣.
٨. النجم: ١٨.
٩. النجم: ٧ ـ ٨.
١٠. النجم: ٩.
١١. الفرقان: ٢١.
١٢. ق: ٣٥.

الآية الأُولى

ذهب علماء السلف من الأشاعرة بجواز الرؤية بالعين الناظرة.

وقالوا: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾،[1] معناه أحد أمرين: إمّا لا تدركه الأبصار في عالم الدنيا، فهي تدركه إذاً في الآخرة.

وإمّا لا تدركه أبصار الكافرين المكذّبين.[2]

وهذا مذهب الحشوية والمجسّمة وطائفة كبيرة ممن يتعبّد بهذا الرأي من أهل السنة وأصحاب الحديث. وقد إختلق بعضهم أخباراً وروايات ونسبوها إلى النّبيّ ﷺ وهو بريء من تلك الأكاذيب من ذلك رووا عن جابر الأنصاري بسند ضعيف أنّه قال في حالة المسلمين يوم القيامة؛ نحن على كوم يوم القيامة، إذ يأتينا ربّنا فيقول: ماذا تنظرون؟ فنقول: ربنا، فيقول: أنا ربكم. فنقول: حتى ننظر إليك، فيتجلّى لنا وهو يضحك فنتبعه إلى الجنّة.

ورووا عن أنس بن مالك أنه قال: «يتجلّى الله لأهل الجنة في كلّ جمعة».

وفي رسالة أبي سعيد الدارمي[3] في ردّه على الجهميّة أخبار كثيرة من هذا القبيل.

أما العدلية من الإمامية والمعتزلة فعقيدتهم ـ وهي الصحيحة ـ نفي الرؤية بالعين الباصرة. والآية الكريمة فيها دقائق وإشارات لطيفة هي في مقام تنزيه الرب من النواقص والصفات التي لا تليق به فقال سبحانه:

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾،[4] أبدع بقدرته إيجاد السماوات والأرض.

وقال تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾،[5] نفى عنه الولد.

وقال تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾، نفى عنه الصاحبة.

وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أيّ هو الذي خلق جميع الأشياء.

---

١. الأنعام: ١٠٣.

٢. أنظر: الإبانة فصل إثبات الرؤية، ص ١٠.

٣. عثمان بن سعيد الدارمي (٢٠٠ ـ ٢٨٠هـ): من كبار علماء الأشاعرة وأهل التجسيم.

٤. البقرة: ١١٧.

٥. الأنعام: ١٠١.

وقال تعالى: ﴿وهُوَ بكُلِّ شَيْءٍ عَليمٌ﴾، وهو العليم بكل ما خلق.

وقال تعالى: ﴿ذَلكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لا إلَـهَ إلاَّ هُوَ خَالقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾، [1] هـذه هـي صـفة الرب الذي ليس إله غيره، خالق كل شيء.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكيلٌ﴾، ثم هو الوكيل وإليه ترجع الأمور.

وقال تعالى: ﴿لاَّ تُدْركُهُ الأَبْصَارُ﴾، [2] منزّه عن المادة والكيف والجهة لذا لا تدركه الأبصار.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ يُدْركُ الأَبْصَارَ﴾، وهـو المـدرك لجميـع الأشـياء والمحـيط بهـا وكـلّ شيء بقبضته وإرادته.

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطيفُ الْخَبيرُ﴾، وهـو اللطيـف، أيّ لا يحـدّه مكـان ولا زمـان، فـلا يمكن أن يتصور بحقه الجسمية والمادة.

وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءكُم بَصَآئرُ من رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلنَفْسه وَمَنْ عَميَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بحَفيظٍ﴾. [3]

وهو الخبير، المطّلع على أسرار العباد وما في ضمائرهم، العالم بمـا فـي الكـون ومـا يجـري فيـه، عالم الغيب والشهادة، ﴿وَعندَهُ مَفَاتحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا في الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ من وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ في ظُلُمَات الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابسٍ إلاَّ في كتَابٍ مُّبينٍ﴾. [4]

كل ذلك قد جاءكم أيها الناس، واتضح لكم أمر خالقكم، وعندكم من الأدلة والبـراهين الواضحة ما لا غبار عليه.. فاعبدوه.. ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو.

إذن (فمن أبصر فلنفسه، ومن عمي فعليها..)

فالعقيدة الصحيحة لابدّ من نفي الرؤية التي تصوّرها الأشاعرة والحشوية، ولابدّ مـن نفـي الجوارح والأعضاء والأجزاء والكيفيات عنه سبحانه، فمـا نـسب لـه فـي القـرآن الكـريم مـن الوجـه، واليـد، والعـين، والـساق، والفوقيـة، والنـزول، والهبـوط، و العـرش، والكرسـي،

---

١. الأنعام: ١٠٢.

٢. الأنعام: ١٠٣.

٣. الأنعام: ١٠٤.

٤. الأنعام: ٥٩.

والاستواء،كلّ ذلك مؤوّل إلى معانٍ غير تلك المعاني التي فهمها علماء السلف من أهل السنة والحشوية وأهل الحديث.

إذن لابدّ من تنزيهه سبحانه عن المادة وعن التركيب وهذا يعني تنزيهه عن الكيف والأين، وعن الزمان والمكان. وإذا نزّهناه من ذلك كلّه سوف نسلم من التجسيم أو التشبيه، وهذا يعني ليس له يدان كالجارحة، ولا له عينان كالباصرة، ولا له وجه كسائر الوجوه، ولا له ساق واستواء وكرسي وغير ذلك من الصور و الجزاء المركّبة من المادة الشاغلة لحيّز من المكان في زمن من الأزمان وبكيف ما، وعليه عندما نفهم جيّداً أنّه سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، سوف تنحلّ تلك الشبهات ويرتفع عندئذ المحذور، وتخلص إلى معانٍ أخر تليق بساحة الربّ جلّ وعلا، وتلك المعاني يستخلصها أُولو الألباب والراسخون في العلم وهم أهل بيت العصمة ﷺ، فالعقل السليم والذوق الرفيع، والإيمان الخالص، والمعرفة الحقّة كلّ ذلك يرشدنا إلى معاني تلك الألفاظ الواردة في حق الله سبحانه.

الفقرات التي أشرنا إليها في الآية الكريمة (٥٩) من سورة الانعام هي جملة من الصفات التي نعت الحق بها نفسه، فهي مدح كما يليق بساحة عظمته وعلو شأنه، وهي في معرض التنزيه عن كلّ نقص وعيب، ثمّ كل ما كان نفيه مدحاً فإن إثباته لا محال يكون نقصاً وذماً فقوله سبحانه: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾[١] هذا النفي مدح به نفسه، فلو قلنا بالرؤية فسوف يناقض ذلك ما مدح به نفسه، وهذا النقيض يستلزم التجسيم، والتجسيم يستلزم التركيب، والتركيب يؤدي به إلى المادة، وتعالى علواً كبيراً عمّا يصفه المبطلون لأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.[٢]

لقد كتب أحمد بن إسحاق إلى أبي الحسن الثالث ﷺ يسأله عن الرؤية و ما اختلف فيه الناس فكتب: لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر، فاذا إنقطع الهواء عن الرائي و المرئي، لم تصحّ الرؤية و كان في ذلك الاشتباه، لأنّ الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية و جب الاشتباه... الحديث.[٣]

---

١. الأنعام: ١٠٣.

٢. شورى: ١١.

٣. أصول الكافي ١: ٩٧، ح ٤.

وفيما رواه الثقات من أصحابنا أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «سلوني قبل أن تفقدوني. فقال ذعلب: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفأعبد ما لا أرى؟ فقال: وكيف تراه؟

فقال عليه السلام: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان، قريب من الأشباه غير ملابس، بعيدٌ منها غير مباين، متكلمٌ لا بروية، مريدٌ لا بهمة، صانعٌ لا بجارحة، لطيفٌ لا يُوصف بالخفاء، كبيرٌ لا يوصف بالجفاء، بصيرٌ لا يوصف بالحاسّة، رحيمٌ لا يوصف بالرقّة تعنو الوجوه لعظمته، وتجب القلوب من مخافته».[1]

ومن خطبة له عليه السلام يقول فيها ما يليق بساحة الرب:

«..الأحد بلا تأويل عدد، والخالق لا بمعنى حركة ونصب، والسميع لا بأداة، والبصير لا بتفريق آلة، والشاهد لا بمماسة، والبائن لا بتراخي مسافة، والظاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة. بانَ من الأشياء بالقهر لها، والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له، والرجوع إليه، من وصفه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله، ومن قال (كيف) فقد استوصفه ومن قال (أين) فقد حيّزه...».[2]

وقال الإمام أبو جعفر الثاني عليه السلام: «أوهام القلوب أدق من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك البلدان التي لم تدخلها ولا تدركها ببصرك، فأوهام القلوب لا تدركه، فكيف تدركه الأبصار».

وقد أشار ثقة الإسلام الكليني رضوان الله تعالى عليه في أصوله إلى الرؤية وذكر هناك جملة من أحاديث أهل بيت العصمة، فراجع.

الآية الثانية

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾.[3]

هذه الآية الكريمة تصف حال المؤمنين في يوم القيامة وإنّهم في حالة فرح وسرور وابتهاج،

---

١. نهج البلاغة: ص ٢٨٥، رقم ١٧٩.

٢. المصدر: ص ٢١٢، الخطبة ١٥٢، تحقيق و ضبط صبيحي الصالح.

٣. القيامة: ٢٢ ـ ٢٣.

فهم ينظرون إلى ما وعدهم الله سبحانه، وقد إنكشف لهم ما كان قد عرفوه في الدنيا، فإذا كانت عقيدتهم قد جاءت من خلال الأدلة والبراهين العقلية، أو بما رووه الأئمة لهم فصدّقوا؛ هذا التصديق تنكشف حقيقته في يوم القيامة، لذا هم ينظرون إليها مستبشرين فرحين.

وهنا يمكن أن نشير إلى جملة من المعاني الواردة في النظر والرؤية حسب ورودها في القرآن، من ذلك:

قوله (ناظرة) النظر هو التأمل ومثاله قوله تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُواْ لَكَ الأَمْثَالَ﴾،[1] وقوله: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[2] وقوله: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾.[3]

في هذه الموارد النظر هو التأمل، وقد كان النظر في الإثنين الأولين الفعل فيهما لازم، وفي الآية الثالثة الفعل متعد بحرف الجر.

وقوله: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾،[4] بمعنى الإنتظار وقد جاء استعماله في كلام العرب كثير.

وقوله: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾،[5] بمعنى المهلة وفي ذلك آيات أيضاً منها قوله تعالى: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾،[6] أيَ: امهلونا.

ومثله قوله: ﴿فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾،[7] وهكذا قوله: ﴿أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.[8] فالنظر في الموارد الثلاث أُريد به المهلة ، والله العالم.

أقول: إلى هنا قد بيّنا موردين من الآيات الثمانية عشر في الرؤية، و نكتفي بهذا المقدار. فإذا عرفت ما قدّمناه من شرح في هذين الموردين فهو يصدق في غيرها من الآيات و

---

١. الفرقان: ٩.
٢. الإسراء: ٢١.
٣. الغاشية: ١١٧.
٤. الأحزاب: ٥٣.
٥. البقرة: ٢٨٨.
٦. الحديد: ١٣.
٧. النمل: ١٣٥.
٨. الأعراف: ١١٤.

الموارد، حيث أنّ الرؤية المراد بها في جميع تلك الموراد لا يقصد منها على الرؤية البصرية فافهم و تدبّر.

والله ولي التوفيق و منه نطلب العون و التسديد، و آخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المؤلف الفقير الراجي عفو ربه الغني
عبد الرسول الغفاري

المصادر

١. العسقلاني، احمد بن علي بن حجر، إبانة الأحكام، ت ٨٥٢ه دارالفكر، بيروت، ٢٠٠٢م.
٢. الجصّاص ، احمد بن علي الرازي، أحكام القرآن، ت ٣٧٠ ه دارالكتاب العربي، بيروت .
٣. الزمخشري، جارالله محمودبن عمر، أساس البلاغة، ت ٥٣٨ ه دارصادر، بيروت، ١٩٦٥ م.
٤. الواحدي، علي بن احمد، اسباب النزول، ت ٤٦٨ ه المكتبة الثقافيه، بيروت ١٤١٠ ه.
٥. الشرتوني، سعيد الخوري، اقرب الموارد في فصح العربية و الشوارد، مؤسسة دارالكتب الاسلاميه.
٦. البيضاوي، عبد الله بن عمر، أنوار التنزيل و اسرار التأويل، ت ٦٨٥ هـ دارالرشيد، مؤسسة الايمان، ط ١، بيروت، ٢٠٠٠ م.
٧. المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ت ١١١١ ه ،ط ٣، دارإحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٣ هـ.
٨. البحراني، السيد هاشم، البرهان في تفسير القرآن، ت ١١٠٧ ه ط ١، انتشارات الشريف الرضي، قم، ١٤١١ ه.
٩. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تاريخ الخلفاء، ت ٩١١ ه ط ١، انتشارات الشريف الرضي، قم، ١٤١١ هـ.
١٠. إبن عساكر، علي بن حسن الدمشقي، تاريخ دمشق، ت ٥٧١ ه دارالفكر، بيروت ١٩٩٥ م.
١١. الاسترآبادي، شرف الدين علي الحسيني، تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة، من اعلام القرن العاشر الهجري، مؤسسة النشر الاسلامي، قم، ١٤٠٩ ه .
١٢. الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان في تفسير القرآن، ت ٤٦٠ ه دار إحياء التراث العربي، بيروت .
١٣. السليمي، أبوالنصر محمد بن مسعود بن عيّاش السمرقندي، تفسير العيّاشي، ت ٣٢٠ ه نشر المكتبة العلمية الإسلامية ، طهران، ١٣٨٠ ه.
١٤. إبن كثير، ابوالفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي، تفسير القران العظيم، ت ٧٧٤ ه دارالمعرفة، بيروت، ١٩٨٧ م وطبعة دارإحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٥ م.
١٥. الفخر الرازي، ط دار إحياء التراث العربي، التفسير الكبير، بيروت، ١٩٩٥م.

١٦. الحلبي، تقي بن نجم الدين، تقريب المعارف، ت ٤٤٧ هـ طبعة سنة ١٤١٧هـ.
١٧. معرفة، محمد هادي، التمهيد في علوم القرآن، مطبعة مهر، قم، ١٣٩٨هـ.
١٨. الشريف المرتضى، علي بن الحسين الموسوي، تنزيه الأنبياء، ت ٤٣٩ هـ ط دارالاضواء، بيروت، ١٤٠٩ هـ.
١٩. الطبري، إبن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، ت ٣١٠ هـ ط ١، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢ م.
٢٠. القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، دارإحياء التراث العربي، بيروت.
٢١. عبد الرحمن الثعالبي، الجواهر الحسان، ت ٨٧٥ هـ ط دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٩٧م.
٢٢. الطنطاوي، الجوهري، الجواهر في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩١ م.
٢٣. الشريف الرضي، حقائق التأويل، ت ٤٠٦ هـ مؤسسه البعثة طهران ١٤٠٦هـ.
٢٤. الطبري، محب الدين أحمد بن عبد الله الشافعي، ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، ت ٦٩٤هـ القاهرة، مكتبة القديس، ١٣٥٦هـ.
٢٥. إبن عربي، محي الدين، رد المتشابه إلى المحكم من الآيات القرآنية، عالم الفكر، الغوريه، القاهرة.
٢٦. الالوسي، محمودبن عبدالله الحسيني البغدادي، روح المعاني، ت ١٢٧٠ هـ المطبعة الأميريه، ١٣١٠ هـ.
٢٧. الدرامي، عبد الله بن عبد الرحمن السمرقندي، سنن الدرامي، ت ٨٩٦ هـ دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٧م.
٢٨. الشيرازي، ملاصدرا الحكيم المتألّه، الحكمة المتعالية، ت ١٠٥٠، ط ٤، داراحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٤م.
٢٩. الاصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، حلية الأولياء، ت ٤٣٠ هـ ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧ م.
٣٠. النسائي، أحمدبن علي، خصائص أمير المؤمنين علي بن ابي طالب، ت ٣٠٣هـ مطبعة شريعت طهران، طبعة مكتبة التربية، بيروت، ١٩٨٧م.
٣١. زيد، مصطفى، دراسات في التفسير.
٣٢. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ت٩١١هـ دارالفكر، ط ١، بيروت، ١٩٨٣م؛ وطبعة مكتبة المرعشي، قم، ١٤٠٤ هـ.
٣٣. الحسكاني، الحاكم عبيد الله بن عبد الله، شواهد التنزيل، ت ٤٥٠هـ تحقيق المحمودي، مؤسسة الطبع والنشر التابعة لوزارة الثقافة والارشاد، ط ١، طهران، ١٩٩٠ م.
٣٤. البخاري، محمد بن اسماعيل بن المغيرة الجعفي، صحيح البخاري، ت٢٥٦هـ دار احياء التراث العربي، بيروت.
٣٥. الهيثمي، إبن حجر أحمد بن محمد، الصواعق المحرقة، ت ٩٤٧ هـ مطبعة البابي، مصر، وطبعة مكتبة القاهرة، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف.
٣٦. السباعي، عبد الوهاب بن علي، طبقات الشافعية الكبري، ت ٧٧١ هـ مطبعة هجر، ط ٣، القاهرة ٢٠٠١ م، وطبعة أخرى (الحسينيه، القاهرة).
٣٧. السلمي، محمد بن حسين النيسابوري، طبقات الصوفيه، ت ٤١٢ هـ ط مصر، ١٩٥٣ م.

٣٨. الداوودي، محمد بن علي بن أحمد، طبقات المفسرين، ت ٩٤٥ هـ دار الكتب العلمية، بيروت .
٣٩. إبن البطريق، يحيى بن الحسن بن الحسين الأسدي الحلي، العمدة، ت ٥٢٣ هـ طهران، ١٤١٢ هـ.
٤٠. البحراني، هاشم بن سليمان الحسيني، غاية المرام و حجّة الخصّام في تعيين الإمام، ت ١١٠٧ هـ نشر علم الحوزه، قم، ١٤٢٥ هـ.
٤١. الأميني، عبد الحسين، الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ت ١٩٧٠ م، ط ٣، دار الكتاب العربي، بيروت،١٣٨٧ هـ.
٤٢. الكليني، محمدبن يعقوب الرازي، الكافي، ت ٣٢٩ هـ منشورات المكتبة الإسلامية، ١٣٨٨ هـ.
٤٣. إبن عدي، عبد الله بن عدي الجرجاني، الكامل، ت ٣٦٥ هـ ط ٣، دارالفكر، بيروت،١٩٨٨م.
٤٤. الزمخشري، محمود بن عمر الخوارزمي، الكشّاف عن حقانق التنزيل، ت٥٣٨هـ ط المكتبة التجارية، ١٣٥٤ هـ.
٤٥. الأندلسي، إبن رشد محمد بن أحمد، الكشف عن مناهج الادلّة، مركز دراسات الوحدة العربية، ط ١، بيروت، ١٩٩٨م.
٤٦. الخرّاز الرازي من علماء القرن الرابع، كفاية الأثر في النص على الائمة الاثنى عشر، انتشارات بيدار، قم، مطبعة الخيام، ١٤٠١ هـ.
٤٧. الخازن، علاء الدين علي بن محمد البغدادي، الباب التأويل في معاني التنزيل، ت ٧٢٥ هـ مكتبة المثنى بغداد.
٤٨. إبن منظور المصري الافريقي، لسان العرب، ت ٧١١ هـ دار احياء التراث العربي، بيروت،١٩٨٨م.
٤٩. زرزور عدنان محمود، متشابه القرآن، مكتبة دار الفتح، دمشق، ١٩٦٩م.
٥٠. إبن شهر آشوب، محمد بن علي، متشابه القرآن و مختلفه، ت ٥٧٧ هـ طبعة بيدار، قم
٥١. الطبرسي، ابوعلي الفضل بن الحسن، مجمع البيان، من اعلام القرن السادس الهجري، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ١٩٩٥م.
٥٢. الهيثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد، ت ٨٠٧ هـ ط ٣، دار الكتاب العربي، بيروت،١٩٨٢م. وطبعه دارالفكر، بيروت، ١٩٩٤م.
٥٣. إبن منظور محمد بن مكرم، مختصر تاريخ إبن عساكر، ت ٧١١ هـ دارالفكر، دمشق، ١٩٨٨م.
٥٤. النسفي الحنفي عبد الله بن أحمد بن محمود، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، ت ٧٠١ هـ طبعة دارالكتب العربية الكبرى، بهامش تفسير الخازن، وطبعه دارالفكر، بيروت.
٥٥. الطبري، محمد بن جرير بن رستم، المسترشد في إمامة أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، المتوفّى اوائل القرن الرابع الهجري، مؤسسة الثقافة الإسلامية، قم، ١٤١٥ هـ.
٥٦. الشيباني، أحمد بن محمد، مسند أحمد بن حنبل، ت ٢٤١ هـ ط دارالفكر، بيروت،أوفست عن المطبعة الميمنيّة.
٥٧. الصنعاني عبد الرزاق بن حمّام، المصنّف، ت ٢١١هـ منشورات المجلس العلمي، بيروت، ١٣٩٠هـ.
٥٨. إبن شيبة عبد الله بن محمد الكوفي العبسي، المصنّف في الأحاديث والآثار، ت ٢٣٥ هـ دار الفكر، بيروت،١٩٨٩م.

٥٩. البغوي، الحسين بن مسعود الفرّاء، معالم التنزيل في التفسير والتأويل، ت ٥١٦، دارالفكر، بيروت،١٩٨٥م.
٦٠. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، ت ٥٠٢ هـ ط ٢، قم، ١٤٠٤هـ.
٦١. رضا محمد رشيد، دارالمعرفه، ط٢، اوفست، بيروت.
٦٢. إبن المغازلي علي بن محمد الواسطي الشافعي، المناقب، ت ٤٨٣ هـ المكتبة الإسلامية، طهران، ١٤٠٣هـ.
٦٣. المتقي الهندي، علي بن حسام الدين، منتخب كنز العمال، طبعة دارالفكر بهامش مسند أحمد بن حنبل.
٦٤. الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٩٧٢م.
٦٥. إبن المتوّج، الناسخ و المنسوخ، ت ٨٣٦ هـ.
٦٦. الشبلنجي، مؤمن بن حسن الشافعي، نور الأبصار، طبعة دارالجيل، بيروت، ١٩٨٩م.
٦٧. أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، نهج البلاغة، ت٤٠هـ مؤسسة الأعلمي، بيروت، تحقيق وضبط صبحي الصالح، بيروت، ١٣٨٧هـ.

فهرست انتشارات مرکز بین‌المللی ترجمه و نشر المصطفی صلی الله علیه و آله

ردیف	نام کتاب	نام مؤلف / مترجم	زبان	نوبت / سال
۱	آثار و برکات نماز	رجب‌علی حیدری مظفرنگری	اردو	اول، ۱۳۸۶
۲	آداب اسلامی، ج ۱ـ۲	محمد عندلیب	فارسی	سوم، ۱۳۸۵
۳	آداب اسلامی، ج ۱ـ۲	محمد عندلیب	اردو، انگلیسی	اول، ۱۳۸۴
۴	آداب اسلامی، ج ۲	محمد عندلیب	عربی	دوم، ۱۳۸۴
۵	آداب التلاوة	محمد غلامی	عربی، انگلیسی	۱۳۷۸
۶	آزادی اراده انسان در کلام اسلامی	طاهره روحانی، حلیمه حسینی	فارسی	اول، ۱۳۸۱
۷	آزادی در مکتب فکری عاشورا	علیرضا محمدی / اسماعیل دانش / علام سخی حلیمی	فارسی	اول، ۱۳۸۸
۸	آسیب‌های درونی عزاداری	سید محمد علی موسوی	فارسی	اول، ۱۳۸۸
۹	آشنایی با ادیان بزرگ	حسین توفیقی	فارسی	دهم، ۱۳۸۶
۱۰	آشنایی با استشراق و اسلام‌شناسی غربیان	محمدحسن زمانی	فارسی	اول، ۱۳۸۸
۱۱	آشنایی با تاریخ تفسیر و مفسران	حسین علوی مهر	فارسی	سوم، ۱۳۸۸
۱۲	آشنایی با تاریخ و منابع حدیثی	دکتر علی نصیری	فارسی	اول، ۱۳۸۵
۱۳	آشنایی با جوامع حدیثی شیعه و اهل‌سنت	دکتر علی نصیری	فارسی	دوم، ۱۳۸۸
۱۴	آشنایی با رهبران سلفی وهابیت	الیاس قاسم اف	آذری	اول، ۱۳۸۸
۱۵	آشنایی با صحیفه سجادیه	محمد علی مجد فقیهی	فارسی	اول، ۱۳۸۵
۱۶	آشنایی با علوم قرآن	محمد باقر سعیدی روشن	فارسی	اول، ۱۳۸۸
۱۷	آشنایی با متون حدیث و نهج‌البلاغه	مهدی مهریزی	فارسی	چهارم، ۱۳۸۷
۱۸	آفتاب فقاهت(زندگی‌نامه مقام معظم رهبری)	محمدیعقوب بشوی	اردو	اول، ۱۳۸۲
۱۹	آموزش احکام(همراه با استفتائات مقام معظم رهبری)	محمدحسین فلاح‌زاده	فارسی	چهارم، ۱۳۸۷
۲۰	آموزش صرف	سید قاسم حسینی، غلامعلی صفایی و محمود ملکی	فارسی	سوم، ۱۳۸۸
۲۱	آموزش علوم قرآن	محمدباقر سعیدی‌روشن	فارسی	اول، ۱۳۸۸
۲۲	آموزش فارسی به فارسی(کتاب چهارم و پنجم)	مرکز آموزش زبان و معارف اسلامی	فارسی	سوم، ۱۳۸۴
۲۳	آموزش فارسی به فارسی(کتاب دوم و سوم)	مرکز آموزش زبان و معارف اسلامی	فارسی	سوم، ۱۳۸۴
۲۴	آموزش فارسی به فارسی(کتاب ششم)	مرکز آموزش زبان و معارف اسلامی	فارسی	اول، ۱۳۸۳
۲۵	آموزش فارسی‌به‌فارسی (کتاب‌کار ۴، ۵، ۶، ۷)	اصغرفردی، احمدزهرایی، جعفرمقیمی	فارسی	اول، ۱۳۸۸
۲۶	آموزش کلام اسلامی ۲(راهنماشناسی، معادشناسی)	محمد سعیدی مهر	فارسی	اول، ۱۳۷۸
۲۷	آموزش منطق	غرویان	فارسی	دوم، ۱۳۸۰
۲۸	آموزش نماز	کمیته فرهنگی نهضت اسلامی تاجیکستان	تاجیک	اول، ۱۳۷۷
۲۹	آموزش نماز	محمد زین العابدین ایوبی	بنگلا	اول، ۱۳۸۲
۳۰	آموزه‌های بنیادین علم اخلاق، ج ۱ـ۲	محمد فتحعلی خانی	فارسی	اول، ۱۳۷۹
۳۱	آموزه‌های گام به گام نستعلیق	حسن آهنگران	فارسی	اول، ۱۳۸۶
۳۲	آنچه یک زن مسلمان باید بداند	میراشرف العالم	بنگلا	اول، ۱۳۸۷
۳۳	آیات الاحکام تطبیقی	محمدفاکر میبدی	فارسی	اول، ۱۳۸۳
۳۴	ابن تیمیه منهجه‌فی‌الحدیث	ابومحمدالنعیمی	عربی	اول، ۱۳۸۸
۳۵	اتحاد الفریقین	سید شجاعت حسین رضوی	اردو	اول، ۱۳۸۱
۳۶	احکام اسلامی	الیاس قاسم‌اف	تاجیکی	اول، ۱۳۸۸
۳۷	احکام روزه	کمیته فرهنگی نهضت اسلامی تاجیکستان	تاجیک	اول، ۱۳۷۷
۳۸	احکام زکات	کمیته فرهنگی نهضت اسلامی تاجیکستان	تاجیک	اول، ۱۳۷۷
۳۹	احکام نکاح و طلاق	کمیته فرهنگی نهضت اسلامی تاجیکستان	تاجیک	اول، ۱۳۷۷
۴۰	احکام و مقررات شکار و صید	علی‌اکبر صادقی	فارسی	اول، ۱۳۸۵
۴۱	احوال الشخصیه شیعیان افغانستان	عبدالله شفاهی	فارسی	اول، ۱۳۸۷
۴۲	اخلاق تبلیغ در سیره رسول الله صلی الله علیه و آله	سید مرتضی حسینی	فارسی	دوم، ۱۳۸۵
۴۳	ادوار الاجتهاد عند الشیعة الامامیة	عدنان فرحان تنها	عربی	اول، ۱۳۸۶
۴۴	اسباب النزول القرآنی؛ تاریخ و حقائق	حسن محسن حیدر	عربی	اول، ۱۳۸۵
۴۵	اسرار نماز	رجبعلی حیدری مظفرنگری	اردو	اول، ۱۳۸۵
۴۶	اسراف و تبذیر، تباهی سرمایه‌ها	دکتر ناصر رفیعی محمدی	فارسی	اول، ۱۳۸۸